خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء

دراسة بلاغية

الدكتور

دسوقي عبد المعز محمد محمد

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد بالكلية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

مقدِّمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، خير من نطق فبلّغ وأبلغ ، وكان كما قال : " أنا أفصح العرب ... " [١] عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد ..

فلما كان الشعر ديوان العرب [٢] ، فإن شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر يرى أنَّ جوهر العمل البلاغي يتمثّل في تفقد الأبنية الشعرية ، ودراستها دراسة بلاغية تذوقية ...؛ وذلك لعظم منزلة الشعر في لغة العرب وبلاغتهم ، إذ هو " معدن البلاغة وعليه المعوّل فيها " [٣] .إذا كان ذلك كذلك، فإن ذلك لا يغض من شأن النثر ودراسته دراسة بلاغية تذوقية تحليلية، لاسيما إذا نظرنا إلى القول القائل بأن النثر أصل الكلام ، والنظم فرع عنه، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل ، لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات"[٤] والمقام لا يسع لذكر ما لكليهما،

---

(١) تمام الحديث : " بيد أنّي من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر " . ينظر : : الفائق في غريب الحديث للزمخشري – تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١ ، ١١ ، دار المعرفة ، لبنان ، ط ٢ ، د. ت .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي – تحقيق : يوسف علي طويل ، ١ ، ١٢٣ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٧ م .

(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق : محمد التنجي ، ٢٤ ، بتصرف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥ ،وينظر: دراسة في البلاغة والشعر ، محمد أبو موسى : ١٨ ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩١

(٤) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى – تحقيق / محمد حسن محمد حسن إسماعيل: ٢٩٩دارالكتب العلمية – بيروت– ط ١ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

كما أن المقام ليس فى إبراز أيهما أفضل من الآخر.[١] فإذا كان للشعر أبنية ولمحات وخيالات فللنثر مثل ذلك ، والبلاغة روح ينفخها صاحب النص فى نصه سواء أكان نصه شعراً أم نثرا.

والتراث العربى يموج بالآثار النثرية النادرة الدالة على ثرائه وأصالته وبلاغته ، وهى فى أمس الحاجة إلى دراستها دراسة بلاغية تذوقية تحليلية .

وخطبة واصل بن عطاء (٨٠- ١٣١هـ) التى جانب فيها حرف الراء من هذه الآثار.

والخطبة على بلاغتها وفصاحتها وجمال صياغتها جاءت خالية من حرف الراء ، وهو من أكثر الحروف دوراناً فى الكلام.

وقد نالت هذه الخطبة إعجاب الجميع واستحسانهم وعلى رأسهم الجاحظ فى بيانه .[٢]

ومن الأسباب القوية فى اختيارى هذه الخطبة موضوعا للدراسة هي تلك المقدرة البيانية الفائقة لرجل لديه عيب فى نطق حرف الراء، ثم يخطب خطبة طويلة ارتجالية[٣] – دون سابق إعداد – ولا يأتى فيها بهذا الحرف.

هذا وقد درست هذه الخطبة فى بحث أدبى تحت عنوان : " خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء"[٤] ، وقد أفاد بحثى هذا منها.[٥]

---

(١) للاطلاع على ذلك ينظر الإمتاع والمؤانسة : ٢٩٩- ٣٠٥ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق / الخامى فوزى عطوى : ٢٣- دار صعب – بيروت – ط ١ ١٩٦٨م .

(٣) الارتجال: هو التدفق بالكلام عفو الخاطر من غير إعداد، فن الخطابة ،د/ أحمد محمد الحوفى :١٦٦، مطبعة نهضة مصر، ط الثانية، د- ت .

(٤) للباحث : محمد عبد الرحيم النجار .

(٥) من قبيل الترجمة لصاحب الخطبة ومعرفة بعض ما اتصل بالخطبة من مصادر أدبية .

ولم يتناولها أحد – فيما أعلم – بالدراسة البلاغية .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى مقدمة ، وتمهيد ، ومبحث واحد، وخاتمة.

أما المقدمة فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع ، وسبب اختياره .

والتمهيد كان للحديث عن واصل وخطبته.

ثم المبحث الذى خصص للأساليب البلاغية فى الخطبة.

والخاتمة وفيها أهم النتائج التى توصل إليها البحث ، ثم المصادر والمراجع ، وفهرس البحث.

ولا شك أن هذا البحث فيه حسنات،مع أنه لم يخل من السيئات ، ومن فضل الله أنه أنزل قوله :{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـــيِّئَاتِ }[1] فآمل أن يحقق هذا البحث الغاية المنشودة منه ، أو أن يدنو منها على أقل تقدير، وأن يكون لبنة فى صرح الدرس البلاغى التطبيقى القائم على تحليل النص الأدبى العربى وتذوقه، فإن وفقت فلله الحمد من قبل ومن بعد، وإن تكن الأخرى فحسبى المحاولة ، والله ولى التوفيق ، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث ...

---

(١) سورة هود من الآية : ١١٤

تمهيد

أولاً : واصل بن عطاء :

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى المعروف بالغَزَّال، مولى بنى ضبة أو بني مخزوم أحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره ، وهو رأس المعتزلة ومعلمهم الأول ، وهو أول إمام قوى رفع مذهب الاعتزال .(١)

ولادته :

ولد واصل بن عطاء بمدينة الرسولﷺ سنة ثمانين للهجرة، ثم نزح إلى العراق وأقام بها ، ولزم الحسن البصرى (أستاذه) وواظب على حضور مجالسه والاقتباس من علمه .

ألقابه :

اشتهر واصل بالعديد من الألقاب ، حيث لقب بالغَزّال ، وأبو حذيفة ، وأبو الجعد ، ولقد أشار إلى الأول الجاحظ فى بيانه ، والمبرد فى كتابه الكامل من أنه كان يلزم سوق الغزالين ؛ ليعرف المتعففات من النساء ، فيجعل صدقته لهن .(٢)

صفاته :

وكان واصل بن عطاء طويل العنق ، فكان ذلك الأمر مدعاة لهجائه والسخرية منه أحياناً، يقول الجاحظ فى ذلك : " وكان طويل العنق جداً "(٣) وأشار

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد،تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣/ ١٤٢– دار الفكر العربى – القاهرة – ط ثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق/ إحسان عباس : ٧/٦– دار صادر – بيروت– ط أولى ١٩٩٤م ، و تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبى ، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمرى : ٥٥٨/٨–٥٥٩، دار الكتاب العربى – بيروت– ط أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .

(٢) الكامل :١٤٢/٣، ووفيات الأعيان : ١١/٦، والبيان والتبيين:٢٣.

(٣) البيان والتبيين : ٢٤.

إلى ذلك المبرد ، وتبعه ابن خلكان ، وذكر أن عمرو بن عبيد نظر إليه من قبل أن يكلمه فقال : لا يفلح هذا ما دامت عليه هذه العنق .[١]

على أن علمه وشمائله الخلقية تطغى على ما يعاب به ، سواء أكان من جهة طول عنقه ، أو لثغته التى اشتهر بها ، فلقد كان واصل بن عطاء يعرف بكرم الخلق وطيب النفس ، كما كان معروفا بالورع والزهد وقد مدحه الشعراء بذلك ، يقول فيه صفوان الأنصاري :

فما مَسَّ دينارا ولا صَرَّ درهما ... ولا عرف الثوب الذي هو قاطعه

كان لهذا الخلق أثر فى ميل طابعه نحو الوعظ والإرشاد على النحو الذى نجده في خطبته التي جانب فيها الراء.[٢]

لثغته:

ولقد طبقت لثغة واصل بن عطاء الآفاق شهرة وصيتا – على أن المصابين باللثغة كثير – نظرا لشهرة صاحبها ومنزلته الفكرية والأدبية.

فالرجل على ما رزقه الله – تعالى – من قدرة بيانية عجيبة ، وحسن تصرف في القول ، وفطنة عقلية كبيرة لم يسلم – كغيره من البشر – من النقص اللازم لبنى الإنسان ، إذ كانت له عاهة في منطقه تصيب لسانه على وجه الخصوص وتعيب كلامه ، وتعرض له فى حرف من الحروف ألا وهو حرف الراء .

وقد كانت تسبب له حرجا شديدا لا يستطيع الإفلات منه ، ولا يتمكن من ممارسة الكلام أو الخطابة ، أو إقامة المناظرات – وهو رئيس نِحْلَة– بالصورة التي تلائم منزلته الكبيرة. [٣].

---

(١) الكامل: ١٤٢/٣، ووفيات الأعيان: ١١/٦.

(٢) ينظر البيان والتبيين : ٢٩، وخطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٦٦،٣٦٥.

(٣) خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٦٦.

ولقد أشار الكثيرون ممن ترجموا لواصل أو تناولوه بالحديث إلى لثغته كعلامة من علاماته التي يتميز بها ويعرف ، وفى مقدمتهم الجاحظ الذي يقول : " وكان واصل بن عطاء قبيح اللثغة شنيعها..."[١].

ويقول قدامة بن جعفر : " وقد ذكر أن واصل بن عطاء كان قبيح اللثغة على الراء ".[٢].

ولما علم واصل أنه ألثغ فاحش اللثغة ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذا كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تميز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ..... ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ، ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمَّل " [٣].

طريقة واصل في اجتناب هذا الحرف :

أما طريقة واصل فى اجتناب هذا الحرف فتتمثل فى إسقاط الكلمات المشتملة على حرف الراء من كلامه ، واستبدالها بمرادفها فى المعنى وما يماثلها فى الحركة

---

(١) البيان والتبيين:٢٤.

(٢) نقد النثر قدامة بن جعفر ، تحقيق د/ طه حسين ،وعبد السلام الحميد العبادى :١١٢،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٢٩٨هـ.

(٣) ينظر البيان والتبيين : ٢٣.

والسكون غالبا، والحال بهذه الصورة ليس سهلا ، فهو يحتاج إلى علم غزير بمفردات اللغة ، ودربة فى استخدامها ، والقدرة السريعة على اختيار أسهلها وأقربها مناسبة للمعنى المراد ،ومن الممكن أن نتخيل معاناة واصل بن عطاء لبلوغ ذلك والتمكن منه [١].

مؤلفاته :

له من التصانيف كتاب : أصناف المرجئة ، وكتاب فى التوبة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب خطبته التى أخرج منها الراء ، وكتاب معانى القرآن ، وكتاب الخطب فى التوحيد والعدل ، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق ،وكتاب فى الدعوة ، وكتاب طبقات أهل العلم والجهل ..... وغير ذلك.."[٢]

ثانيا : مناسبة الخطبة :

ارتجل واصل خطبته هذه التى جانب فيها حرف الراء فى حفل جامع،أقامه الأمير الأموى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق حينذاك فى بداية توليه الولاية ، وقد احتشد لهذا الحفل الكبير أشهر الخطباء والبلغاء فى زمانهم، أمثال خالد ابن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى إلى جانب خطيبنا واصل بن عطاء ... وتقدموا جميعا لإلقاء خطبهم التى أعدوها لهذه المناسبة ، وحبَّروها تحبيرا يليق بها وبهم ، وهم سادة الخطباء ، فانتزعوا إعجاب الحضور ببيانهم وفصاحتهم ، حتى إذا انتهوا ، قام واصل ابن عطاء ليعلن عن نفسه بهدير قوى ، وحضور بدهى ، فارتجل خطبته ارتجالا واقتضبها اقتضابا، فى إطالة مقبولة ، وتحبير مستحسن لائق ، وتجنب فيها

---

(١) خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٧٤.

(٢) وفيات الأعيان :٦/١١.

حرف الراء تجنبا غريبا ملحوظا دون أن يشعر الحضور عنتا منه أو تكلفا..فراق فى أعين الحاضرين وفاق إعجابهم به إعجابهم بغيره، فلقد جاء بما لم يأت به سابقوه مع الارتجال المقتضب وإسقاط حرف من كلامه، وتطويل لم يبلغوه . قال الجاحظ عن الخطبة : " كانت مع ذلك أطول من خطبهم "[١] وكان من إعجاب الوالى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بها أن ضاعف له الصلات وميزه عمن سواه فى العطاء، وانتقل خبر خطبته فى الآفاق ، وحفظها له التاريخ بفخر واعتزاز[٢]

مخالفة موضوع الخطبة للمناسبة التى قيلت فيها :

على أن ثمة اختلاف بين موضوع الخطبة والمناسبة التى قيلت فيها، فالمناسبة التى قيلت فيها الخطبة – كما مر ذكره – مناسبة رسمية عامة ، حيث اجتمع عِلية القوم وساداتهم ليشهدوا حفلا أقامه الأمير عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى يزيد ابن عبد الملك على العراق سنة ١٢٦هـ، وقد حضره جمع غفير من كبار الخطباء ، ممن لهم براعة وشهرة فى مجال الخطابة ، أمثال : خالد بن صفوان التميمى ، وشبيب بن شيبة الملقب بـ" الخطيب " لفصاحته ، والفضل بن عيسى.. وغيرهم.[٣].

ولقد كانت تلك المناسبة تقتضى – ولو قليلا – التعرض لها أو الحديث عنها ، أو التنويه بأميرهم والثناء عليه بما هو معهود من الخطباء والشعراء فى مثل هذه المواقف ، لكن شيئا من ذلك لم يكن ، ولم نر لهذه المناسبة أثرا ملحوظا فى خطبة واصل ، اللهم ما يفهم منها ضمنا وتعليل ذلك من وجهين :

---

(١) البيان والتبيين:٢٨.

(٢) خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء:٣٨٧،٣٨٨.

(٣) البيان والتبيين:٢٨.

١- أن الطابع الدينى كان حينئذ قويا سائدا فى ذلك الزمان ، كما كانت الرهبة الدينية فى أوج نشاطها وسطوتها، وكأن الخطباء كانوا يتخذون من مثل هذه المواقف نهزة للقيام بواجبهم الدينى نحو مجتمعهم وقادتهم.

٢- شخصية الخطيب وميوله الدينية المتميزة ، فقد كان واصل - كما يروون - على جانب كبير من الزهد والورع ، وقد روى الجاحظ له فى بيانه أقوالا تدل على ذلك من مثل قوله : " المؤمن إذا جاع صبر ، وإذا شبع شكر"[١].

ثالثا : وفاته :

ذكر ابن خلكان أن وفات واصل بن عطاء كانت فى سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة [٢]، والصواب أنها كانت فى إحدى وثلاثين ومائة للهجرة[٣] .

رابعا : الكلمات التى عدل عنها واصل فى خطبته وذكر مرادفها :

أسلوب واصل فى الخطبة :

الأسلوب المعدول عنه هربا من الراء :

- القديم بلا غاية والباقى بلا نهاية	- الأول بلا غاية والآخر بلا نهاية
- لاد افع لقضائه..	- لا رافع لقضائه..
- لا يعزب عنه مثقال حبة..	- لا يعزب عنه مثقال ذرة
- .....وحده لا مثيل له.	- وحده لا شريك له.
- محمد عبده ونبيه	- محمد عبده ورسوله

---

(١) البيان والتبيين : ٤٧١، و خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٩٨،٣٩٩.

(٢) وفيات الأعيان : ١١/٦

(٣) نوادر المخطوطات : جمع وتحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون ، تقديم د/ محمد زغلول سلام: ١٣٢،طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د - ت.

- ابتعثه إلى خلقه	- أرسله إلى خلقه
- فبلغ مألكته	- فبلغ رسالته
- على صفوة أنبيائه	- على صفوة رسله
- على ما يدنيكم منه	- على ما يقربكم منه
- ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها	- ولا تغرينكم الدنيا بزخرفها
- طحنتهم بكلكلها	- طحنتهم بصدرها
- فسكنوا اللحود	- فسكنوا القبور
- وأصبحوا لا تعاين	- وأصبحوا لا يرى
- ولا تسمع لهم نبسا	- ولا تسمع لهم ركزا
- فإن أفضل الزاد التقوى	- فإن خير الزاد التقوى
- فإذا تلى عليكم	- فإذا قرئ عليكم
- وأنصتوا لعلكم تهتدون	- لعلكم ترحمون
- أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى	- أعوذ بالله القوى من الشيطان الرجيم .
- نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم	- .....بالقرآن الكريم..

عرض خطبة واصل بن عطاء المنزوعة الراء :

الحَمدُ لله القديمِ بلا غاية ، والباقي بلا نِهاية ، الذي عَلا في دُنوِّه ، ودَنَا في عُلُوِّه ، فلا يَحْويه زمانٌ ، ولا يحيطُ به مكانٌ ، ولا يَئُودُهُ حِفظُ ما خَلق، ولم يَخْلُقْه على مثالٍ سبق، بل أنشأه ابتداعا، وعدله اصطناعا، فأحسن كل شيء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه. تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله،

لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ،إلها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام. يُعْصَى فَيَحْلُم، وَيُدْعَى فَيَسْمَع ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية أن محمداً بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مَأْلَكَتَهُ[1]، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيل الله ،لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضيا على سنته، موفيا على قصده حتى أتاه اليقين، فصلى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل، وأزكى، وأتم، وأنمى وأجل، وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته وأضعاف ذلك إنه حميد مجيد. أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته ، وأحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها، وخدعها، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عاينتم من أعاجيبها؟ وكم نصبت لكم من حبائلها؟ وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها؟ أذاقتهم حلوا، ومزجت لهم سما، أين الملوك الذين بنوا المدائن؟ وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحُجَّابَ، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد. قبضتهم بمحملها، وطحنتهم بِكَلْكَلِهَا، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السَّعَةِ ضيقا، ومن العزة ذلا، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، فأصبحوا لاتُعَايَنُ إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، ولا

---

١ – مألكة : الرسالة ، لسان العرب لابن منظور – مادة " ألك " – دار صادر – بيروت – ط١ د. ت .

تسمع لهم نبسا. فتزودوا عافاكم الله ؛ فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لِحَظِّهِ وسعادته وممن يستمع القول فيتبع أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب. إن أحسن قَصَصِ المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين، كتاب الله الزكية آياته، الواضحة بيناته ، فإذا تلي عليكم فأنصتوا له واسمعوا لعلكم تفلحون. أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي ، إن الله هو السميع العليم : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " [١] ثم قال : نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم والوحي المبين وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم وأدخلنا وإياكم جنات النعيم .[٢]

***

١ سورة الإخلاص:١-٤.

٢ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - /أحمد زكي صفوت :٥٠٢/٢- المكتبة العربية - بيروت - د.ت .

مبحث

الأساليب البلاغية في خطبة واصل بن عطاء

يقول واصل فى مقدمة خطبته:

" الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دنوه ، ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يئوده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا، فأحسن كل شيء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته ،فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه ، تواضع كل شيء لعظمته ،وذل كل شيء لسلطانه ،ووسع كل شيء فضله ،لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، إلها تقدست أسماؤه ،وعظمت آلاؤه ،وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلم ،ويدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، وأشهد شهادة حق، وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية أن محمداً بن عبد الله عبده ونبيه ،وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق، فبلغ مألكته، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يصده عنه زعم زاعم ، ماضيا على سنته ،موفيا على قصده حتى أتاه اليقين ،فصلى الله على محمد، وعلى آل محمد أفضل، وأزكى، وأتم ،وأنمى، وأجل، وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه ،وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك ،إنه حميد مجيد "

فقد بدأ واصل خطبته – كعادة الخطباء في ذلك – بذكر الحمد قائلاً : " الحمد لله " وهو خبر مستعمل في معنى الإنشاء ، حيث عدل إلى الخبرية لتحمل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات ،

والاستغراق والاختصاص والاهتمام ، وشيء من ذلك لا يمكن حصوله بصيغة إنشاء نحو " حمداً لله " أو " احمد الله حمداً " [١]

وتعريف الحمد بـــ " أل " للعموم والشمول ، فهي تفيد الاستغراق الشامل لكل حمد وشكر وثناء ، فهو لله سبحانه وتعالى .

وهذه البداية من واصل تعد براعة استهلال ، إذ ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذب لفظاً ، وأحسن سبكاً ، وأصح معني ، من هذه المواضع الابتداء – كما هو هنا – ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ، حيث يقبل السامع علي الكلام فيعي جميعه ، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان في غاية الحسن . [٢]

ولقد ناسب المقصود أيما مناسبة، حيث استهل خطبته تلك في ذلك المحفل الكبير بحمد الله – عز وجل – وإن كان استهلاله هذا ليس بدعا منه إذ هو من سنن الخطباء قبله.

هذا وقد هيأ به السامعين لسماع تفصيل ما سيلقيه عليهم ، وفي ذلك دلالة علي تمكن الخطيب من الغرض .

وفي هذا الاستهلال اقتباس من القرآن الكريم ، حيث اقتفي أثره في افتتاح الكلام بالتحميد سنة الكتاب المجيد ، لكل بليغ مجيد، فلم يزل المسلمون من يومئذ يلقبون كل كلام نفيس لم يشمل في طالعه على البسملة و الحمد بالأبتر ، أخذاً من

---

١ – انظر : تفسير التحرير والتنوير للشيخ / الطاهر بن عاشور : ١٦٢/١– دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٩٩٧م.

٢ – انظر : الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع – الخطيب القز ويني : ٤٣٩ – دار الكتب العلمية – بيروت –– د . ت .

حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلي الله عليه وسلم – :" كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله ، أو بالحمد فهو أقطع[١]

ولقد لقبت خطبة زياد بن أبي سفيان التي خطبها بالبصرة بالبتراء ؛ لأنه لم يفتتحها بالحمد [٢]

وقوله:" القديم بلا غاية " صفة تزيد من إبراز المهابة والجلالة للمولي سبحانه ،وقد اشتملت العبارة على الاحتراس في قوله " بلا غاية " ؛ وذلك حتى لا يتسلل إلى بعض المتوهمين أن قدمه – سبحانه – مما يكون له حد أو غاية ، فقد أزيلت تلك الأوهام بهذا الاحتراس .

ويأتي قوله :" الباقي بلا نهاية " مشتملا على الاحتراس – أيضا– فبقاؤه – جلت قدرته – لانهاية له .

ووصل واصل هذا القول بسابقه لما بينهما من اتفاق ، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعني ، وهو ما سمى بالوصل للتوسط بين الكمالين ، أو كما قال الخطيب: " التوسط بين حالتي كمال الانقطاع ، وكمال الاتصال [٣]

ولا تعدم تلك الموسيقى النابعة من قوله : " القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية " وقد نجمت عن طريق السجع.

---

١ – الحديث في فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ٨/١– دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ.

٢ – انظر: البيان والتبيين : ٢١٥.

٣ – الإيضاح : ١٥٥–١٥٦.

وفى قوله : " بلا غاية " و" بلا نهاية " ما أطلق عليه السجع المطرف وهو : ما اختلفت فيه الفاصلتان في الوزن ؛ وإنما سمى مطرفاً لبلوغه طرف الحسن ونهايته بالنسبة إلى غيره من أنواع السجع الأخرى.

هذا ولم تتوقف قيمة السجع المطرف هنا عند ذلك التناغى والتناغم بين هاتين العبارتين ، فلقد أكدت السجعة الثانية " بلا نهاية " السجعة الأولى " بلا غاية " ، وصاحب جو التأكيد تلك الموسيقى وذلك التناغم ، وهذا ما يؤكد ويقرر المقدرة البيانية الفائقة التي يتسم بها واصل رغم معاناته في تجنب حرف الراء في كلماته.

وقوله " الذي علا في دنوه ، ودنا في علوه " وصف آخر للمولى – سبحانه وتعالى–فيه تعريف للمسند إليه بالموصول " الذي " وغرضه القصد إلى معان – في هذه الصلة – ذات أهمية فى سياق الكلام ، فإن الذى علا فى دنوه ، ودنا فى علوه ، ولم يحوه زمان ، ولم يحط به مكان ....." قمين بأن يكون له الحمد [١] .

كما أن هذا القول قد احتوى على مقابلة لطيفة ، حيث أورد العلو مع الدنو ، والدنو مع العلو ، ولعل المعنى : أن الله – عزوجل – على دنوه وقربه من خلقه – حيث قوله تعالى: " وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[٢] – هو عال ومتعال.

وفى المقابل فمع علوه علواً كبيراً فهو قريب دان من خلقه ، وهذا لا يكون إلا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

---

١ – ينظر : خصائص التراكيب – دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني– د/ محمد أبو موسي :١٩٥– مكتبة وهبة – ط ٤– ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

٢ – سورة ق:من الآية ١٦.

وقد أضفت تلك المقابلة على الكلام هنا رونقاً وتماسكا، وقوت الصلة بين الألفاظ والمعاني ، علاوة على أنها وضحت وأكدت الفكرة التي أمها واصل ألا وهى تأكيد قدرة الله وسلطانه.

كما تجد لونا بديعيا آخر يخرج من رحم تلك المقابلة ، ألا وهو العكس والتبديل ، حيث قدم في كلامه جزءً ثم أخره [١] وقد وقع العكس والتبديل هنا بين متعلقي فعلي " علا " في الجملة الأولى ، و" دنا " في الجملة الثانية ، وذلك على غرار قوله تعالى : " ..... يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .....[٢] وقد كان واصل – بحق – موفقاً في استعمال تلك المقابلة في ثياب العكس والتبديل ، حيث أراد لفت العقول ، وإيقاظ الخواطر ، وشد الانتباه لما سيعرضه ويسوقه ، وهذا ما ينتظم وبراعة الاستهلال في سلك واحد ؛ حيث لم يزل بعد في مقدمة خطبته ومما يزيد من روعة بلاغة واصل هنا أنه ساق ما ساقه ارتجالا ودون سابق إعداد.

وقوله: " فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان " ترى فيه الفاء وقد ربطت هذا الكلام بسابقه ، فالفاء " هي ذلك الرباط الذي يربط أجزاء المعاني بعضها ببعض"[٣] .

وقد ساق هذا القول على السجع المطرف ، فأتى بمثابة التأكيد لما سبقه ، مع إشاعة جو من الموسيقى التي تنبه القلوب وتشحذ العقول.

---

١ – بغية الإيضاح :٤/ ٢٣-٢٤.

٢ – سورة يونس من الآية : ٣١.

٣ – قراءة في الأدب القديم – د/ محمد أبو موسي : ٤٦– دار الفكر العربي – ط١– ١٩٧٨م.

والتعبير بالمضارع " يحويه " أبان عن التجدد والاستمرار ، وكان واصل موفقا هنا حيث آثر التعبير بالمضارع مع الزمان ؛ لأن من أخص خصائص الزمان التجدد والاستمرار .

قوله " ولا يؤده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق" يعد تتابعاً لأوصاف الذات العلية ، ففي الجملة الأولى اقتباس من قوله تعالى : " ..وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [١]

والتعبير بـــ " ما" الموصولة فى قوله " ماخلق " كشف عن تعظيم وتفخيم هذا الخلق ، ورغم عظم ذلك فإنه لايثقل حفظه على الخلاق العظيم .

وقد وصل بين العبارتين للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى .

هذا ويمكن حمل قوله " ...خلق ، ولم يخلقه ...."على طباق السلب حيث جمع بين فعلى مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفى، وذلك على غرار قول القائل:

وننكر إن شئنا على الناس قولـــــهم ولا يـــنكرون القـــــول حين نقـــول [٢]

قوله:" بل أنشأه ابتداعا ، وعَدَّله اصطناعا " أتى على طريق السجع المتوازي .

ويبدوا أن واصلا قد أكثر من هذا اللون في خطبته مما يتيح للمخاطبين حفظها أو فهمها فهماً جيداً حيث كانت عبارة عن تذكير بحقيقة الدنيا وضحالتها ، وهذا ما ينعكس على التركيز بالاهتمام بالآخرة من طرف خفي.

---

١ – سورة البقرة من الآية : ٢٥٥.

٢ – الإيضاح: ٣١٩.

ولعل واصلاً قد اصطفى هنا صيغة " اصطناعا " – والتي أبدلت فيها الطاء وجوبا من تاء الافتعال [١] ؛ إذ أصل الفعل " اصتنع" – دون صيغة " صنعا " ، لعله فعل ذلك لأمرين :

الأول : أن اصطناعاً فيه من المبالغة في الصنع دون " صنعا " .

الثاني : للمحافظة علي السجعة ؛ وبذا يمكن التأكيد علي أن البديع بألوانه وصوره المتعددة ليس حلية وزينة فحسب ، بل هو حلية وزينة بعد مطابقة الكلام لمقتضي الحال ووضوح الدلالة .

وقوله " فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على ألوهيته " تجد فيه الفاء وقد ربطت الكلام بعضه ببعض ، كما أن فيه اقتباسا من قوله تعالى " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [٢] ، أما قوله " فسبحانه لا معقب لحكمه ، ولا دافع لقضائه " الفاء فيه للربط والتعقيب ، وكأن كل ما سبق من صفات ونعوت إنما توصل إلى الإذعان والإقرار بتنزيه الله – جل وعلا – عن كل نقص .

و " السبح :المر السريع في الماء والهواء ، والتسبيح تنزيه الله – تعالى – وأصله المر السريع في عبادة الله – تعالى – وجعل ذلك في فعل الخير ، كما جعل الإبعاد في الشر فقيل : أبعده الله ، وجعل التسبيح عاما في العبادات قولا كان ، أو فعلا ، أونية [٣] .

---

١ – انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري : ٣٩٩/٤ – دار الجيل – بيروت ط ٥– ١٩٧٩م .

٢ – سورة السجدة من الآية :٧.

٣ – انظر :المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق : محمد سيد كيلاني : ٢٢١– دار المعرفة – لبنان – د. ت .

وتأمل إضافة الضمير إلى كلمة " سبحان " للتعظيم والتبجيل وهو ما يقوى معنى التنزيه في كلمة " سبحان ".

وقوله : " ولا دافع لقضائه " فيه كلمة " دافع " من المواضع التي جانب فيها واصل حرف " الراء " فالوارد " ولا راد لقضائه " ولكنها الفصاحة والبلاغة التي امتلك زمامها واصل في خطبته تلك مع كونها كانت ارتجالا.

وقوله : " تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله" .

والتعبير بالتواضع دون الخضوع فيه من الدقة البالغة فى اصطفاء المفردة المعبرة دون غيرها ؛ وذلك راجع لحس واصل المفعم بالبلاغة والفصاحة ،فقد أورد أبو هلال العسكرى فى فروقه أن : " الخضوع هو التطامن والتطأطؤ ولا يقتضى أن يكون معه خوف " ، " أما التواضع فهو إظهار قدرة من يُتَواضع له "(١)

و التعبير بالفعل الماضي – وإن كان ذلك في جل خطبته – قد طغى على أسلوبه ، وأبان التعبير بالماضي عن ثبوت وتحقق ما عبر عنه .

وتأمل التكرار في قوله " كل شيء " وقد كرره ثلاث مرات فأبان عن نفس أفعمت بالإيمان والإذعان بعظمة الملك الديان .

ولعل واصلا – بعد أن ساق ما ساقه من صفات هي في غاية العظمة – انفعل مع عظمة تلك الصفات فصار يكرر ما كرره .

١– انظر الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى – تحقيق / محمد إبراهيم سليم :٢٤٩،٢٤٨– دار العلم والثقافة – ١٩٩٨م.

وغير خاف أن " التكرار وسيلة مشروعة في لغة الانفعال ...والقرآن وهو المثل الأعلى في لباقة الصوغ وفي الكلام يجرى أسلوبه على هذه الطريقة [١] .

وتتوالى الاقتباسات عند واصل ، فقوله : " وسع كل شيء فضله " مقتبس من قوله تعالي " وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [٢] إلا أن اضطراره الهروب من " الراء " جعله يورد " فضله " بدلا من " رحمته " ، وقد غير واصل في اقتباسه هذا بعض التغييرات " ولا بأس بتغيير يسير – في الاقتباس – لأجل الوزن أو غيره " [٣] .

وكذلك اقتبس في قوله " ولا يعزب عنه مثقال حبة " من قوله تعالي " لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ [٤] مع تغيير يسير .

كما أن قوله : " وهو السميع العليم " تعبير قرآني صرف .

وقوله : " أشهد أن لا إله إلا الله وحده " فيه التعبير بالمضارع " أشهد " وقد كشف عن تجدد واستمرار تلك الشهادة بكلمة التوحيد .

كما حوي التعبير أسلوبا للقصر بطريق النفي والاستثناء ، حيث قصر صفة الألوهية علي الله عز وجل ، قصر صفة علي موصوف ، قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وغني عن البيان أن " أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة ، والملاحظات العديدة ، فهو فن دقيق المجرى ، لطيف المأخذ ، جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار [٥] ، وقوله : " وحده " تأكيد لمضمون جملة القصر .

---

١ – قراءة في الأدب القديم : ١٣٩.

٢ – سورة الأعراف من الآية : ١٥٦.

٣ – الإيضاح : ٣٨٣.

٤ – سورة سبأ من الآية :٣.

٥ – علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، د/ بسيوني فيود:٢/٥ – مكتبة وهبة – د . ت .

وتأمل التنكير في قوله " إلها " وقد أتاح له أن يتبعه بالصفات التي أجراها عليه بعد ذلك من كونه " تقدست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه .....الخ "

ومما يلفت النظر تتابع هذه الأفعال الماضوية " تقدست ، عظمت ، تنزه " مما يقرر ثبات هذه الأفعال له – سبحانه – فيزيد من بث مزيد من التنبيه والتيقظ للمخاطبين ، وإلقاء الروعة في قلوبهم فيصيخوا لما يرد بعد ذلك من عظات ونصائح .

وما زال السجع يتهادى مع واصل في خطبته فيقول : " وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع " وهو من المتوازي ، وكان لهذا السجع أثره في استمالة القلوب والأسماع بسبب ما أحدثه من موسيقى داخلية بين الكلمات .

وقوله : " فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام " الفاء فيه أبانت عن التعقيب ، فبعد إيراد تلك الصفات الإلهية يعقب بعدم بلوغ الأوهام الذات العلية ، وكذلك عدم إحاطة العقول والأفهام به .

ومما يلفت النظر هنا أن واصلا ذكر " الأفهام " بعد العقول ، وإن كان ذكر العقل يغنى عن ذلك ؛ فلعل ذلك راجع إلى حرصه على استقامة جملة السجع ، حتى تتناغى كلمة " الأفهام " مع " الأوهام " التى قبلها .

ومن ثم فقد احتوى القول السابق على السجع المتوازي ، وهو من السجع الحسن ، وقد استمد حسنه من طول القرينة الثانية وهى " ولا تحيط به العقول والأفهام " .

أما قوله : " يُعْصَى فَيَحْلُم ، وَيُدْعَى فَيَسْمَع " تجد واصلا قد اتكأ فيه على الفعل المبني للمجهول " يُعْصَى " و " يُدْعَى" ، ولعل من الفصاحة بمكان اصطفاء البناء للمجهول لعدم تعلق الغرض بالفاعل – أي بمن قام بالعصيان ، أو الدعاء – ففيه ما فيه من العموم والاختصار ، وثمة شيء آخر هو أن هذين البناءين يوحيان بمدى عفو

الله – سبحانه – وحلمه عن العاصين من ناحية ، ومدى فضله وكرمه على الداعين من ناحية أخرى ، وقد دل على ذلك وأكده العطف بـــ " الفاء " التي أفصحت عن سرعة حلمه – تعالى – وسماعه الدعاء ، وقد صيغ هذا القول على سبيل السجع المتوازي . هذا وقد بدا في هذا القول كثير من النكات والأسرار ، وهى – على تعددها – لا تتعارض بل تتآزر في الكشف عما يوحى به القول من مدى عظم فضله وحلمه وجوده .

ويختم واصل شهادة التوحيد بالاقتباس بقوله : " ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون " وهو مقتبس من قوله تعالي : " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [١] .

وقوله : " وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية أن محمدا بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه " تجده موصولا بقوله :" وأشهد أن لا إله إلا الله وحده.....الخ " للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتحدت الجملتان " الشهادتان " في الخبرية ، ولم يكن معهما سبب يقتضى الفصل بينهما ، ووجدت مناسبة تامة ، ورابطة تجمع بينهما في المعنى .

وتأمل قوله " شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية " وقد أتى به على سبيل الاعتراض بين الفعل " أشهد " ومعموله " أن محمدا بن عبد الله.....الخ " ، وغرض واصل من الاعتراض هنا التأكيد ، والتأكيد غرض من أغراض الاعتراض ، وقد أشار إليه صاحب البغية .[٢]هذا وقد احتوت جملة الاعتراض على أسلوبي سجع

---

١ – سورة الشورى : ٢٥.

٢ – بغية الإيضاح : ١٢٩/٢.

كليهما من المتوازي ، وذلك في قوله : " شهادة حق ، وقول صدق " وقوله : " بإخلاص نية وصحة طوية ".

وقوله : " أن محمدا بن عبد الله عبده ونبيه ....الخ " خبر متعلق بقوله السابق " أشهد " ، وقد ورد هذا الخبر مؤكدا ، وتأكيده هنا ليس منظورا فيه إلى حال المخاطب " وإنما ينظر فيه المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقيقة ...وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة "[١] فواصل هنا يصوغ هذا المعنى كما أحسته نفسه مراعيا حال هذه النفس ، فهو لم يشكل صياغة عبارته بدوافع خارجية يلحظها عند مخاطبه [٢] .

وقد تجلى مدى إجلاله النبي – عليه السلام – وهكذا ينبغي أن يكون حال كل مسلم – ، فقد تجلي ذلك من خلال ما أفاض به من صفات متتابعة تتابع الغيث المنهمر حيث قوله " عبده ونبيه وخالصته وصفيه " .

هذا ويلحظ علي تلك الصفات التي خلعها واصل علي النبي – صلى الله عليه وسلم – أنها جاءت متوالية ومعطوفة بالواو – مع كونها غير متضادة – وفى ذلك إشارة إلى بلوغ النبي – عليه السلام – الكمال في كل صفة على حدة .

ولا ريب في ذلك فقد وصفه مولاه – عز وجل – بقوله : " وإنك لعلى خلق عظيم "[٣] .

وتأمل إضافة " الهاء " المتتابعة في هذه الصفات السابقة وقد أفصحت عن التعظيم والتشريف لمقام النبي عليه السلام .

---

١ – انظر خصائص التراكيب : ٩١.

٢ – انظر : السابق : ٩٢.

٣ – سورة القلم : ٤.

وبذا تتناغي الإضافة مع تتابع الصفات في إبراز المراد . وهذا كله تحقيق لمعاني التبجيل والتعظيم تحقيقا يشير إلى الإحساس العميق بها لدى واصل.

وتأمل حرف "الهاء" في هذه الكلمات المتوالية " عبده ، ونبيه ، وخالصته ، وصفيه ، ابتعثه ، خلقه " وكيف كان له هذا الجرس الموسيقى ، وهذا نابع من أن " تكرار حرف بعينه في كلمات ما يضفي على الكلام قدرا من العذوبة والسلاسة [١] .

وقد كان واصل –كدأبه – دقيقا في اصطفاء مفرداته ، حيث اصطفى كلمة " ابتعثه " على زنة " افتعله " دون بعثه ؛لأن هذه الصيغة من معانيها الاتخاذ ، كقولهم " اشتوى القوم ، أي اتخذوا شواء "[٢] ، والمعنى الذي معنا : ابتعثه ، أي اتخذه مبعوثا دون سائر خلقه ، وفى هذا ما فيه من التكريم ، أما صيغة " بعثه " لم تكن لتعطي هذا العطاء . وثمة شيء آخر أن في اختيار مادة بعث دون " أرسل " – مثلا – دقة أخرى تتمثل في هروبه من حرف الراء .

وقد أكثر واصل من الاقتباس في خطبته تلك ، فمن ذلك قوله : " ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدي ودين الحق " فهو مقتبس من قوله – تعالى – " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ " [٣] .

قوله : " فبلغ مألكته [٤] ، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيل الله " تجد الفاء في قوله " فبلغ " للتفريع ؛ لأن هذا كلام قد تفرع عن الكلام السابق ، وفيها معنى

---

١ – ينظر: دراسة في البلاغة والشعر د/محمد أبو موسى :٢٠٤ – مكتبة وهبة – ط ١ – ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٢ – انظر : الكتاب لسيبويه – تحقيق / عبدا لسلام محمد هارون :٤/٧٣– ط ثانية – ١٤٠٢هـ –١٩٨٢م.

٣ – سورة التوبة : من الآية :٣٣.

٤ – المألكة : الرسالة ،اللسان – مادة " ألك " .

العطف ، أي عطف قصة علي قصة ، أي عطف مضمون كلام علي مضمون كلام آخر ، والمعطوف هو قوله " فبلغ مألكته ، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيل الله ..." والمعطوف عليه هو الكلام السابق الذي ذكر فيه واصل الصفات المتتابعة للنبي – عليه السلام – فهو عبد الله ، ونبيه ، وخالصته ، وصفيه ، ابتعثه الله إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق " فجاء عقب ذلك كله ببيان قيام تبليغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الرسالة ، ونصح الأمة ، والمجاهدة في سبيل الله .

وتأمل إيثار التعبير بالأفعال الماضية " بلغ ، نصح ، جاهد " والتي تدل على الثبوت والتحقيق .

ولعل في اصطفاء كلمة " مألكته " دون رسالته يأتي في نطاق تحاشيه حرف الراء ، وهذا مما يحسب له ولمقدرته وقوة فصاحته ووفرة مفرداته ، فهو في هذا الجمع المهيب ، يخطب مرتجلا ، دون سابق إعداد أوتجهيز ، فيالها من فصاحة ومقدرة بيانية رائعة .

وقد صاغ واصل – وكذلك في جل خطبته – قوله علي السجع المتوازي في قوله " فبلغ مألكته ، ونصح لأمته " .

قوله : " لا تأخذه في الحق لومة لائم " اقتباس من قوله تعالي " وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ " وإن كان واصل قد غير تغييرا واضحا في اقتباسه إلا أن ذلك لا يغض من الاقتباس ،فقد قالوا : " لا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن أو غيره " [١] .

وفي قوله : " لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يصده عنه زعم زاعم " سجع متواز فيه ما فيه من التنغيم والتطريب لشحذ العقول ، ولفت القلوب ، لاسيما وهو لم يزل في مقدمة خطبته ، وبذا يطابق واصل بكلامه مقتضى الحال .

---

١ – الإيضاح : ٣٨٣.

ويتعالى التنغيم والتطريب ويزداد من خلال تكرار عدة حروف هي " اللام " ، " والميم " ، و" العين "، إذ تكررت " اللام " خمس مرات ، و " الميم " أربع مرات ، و " العين " ثلاث مرات ، هذا وقد سبقت الإشارة إلى أن تكرار حرف بعينه في كلمات ما يضفي على الكلام قدرا من العذوبة والسلاسة .

وقوله : " ماضيا علي سنته موفيا على قصده " ورد مشتملا على السجع المتوازي ، وقد اصطفى فيه واصل صيغتي اسم الفاعل " ماضيا " و " موفيا " للدلالة على الدوام والثبوت، وفي هذا تقرير وتأكيد لما عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الخلال الحميدة .

وتأمل تكرار هاتين الصيغتين وما أحدثتاه من نغم داخلي للكلمات يتناغى مع الغرض من السجع قبله في شدة اللفت وجذب الانتباه .

ولا ينبغي إغفال دور التنوين في كلا الصيغتين " ماضيا " و " موفيا " حيث أسهم في إضفاء مزيد من معاني التبجيل والتعظيم لسيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

وتأمل عبارة " حتى أتاه اليقين " وهى تصف مدى الحرص الشديد للنبي – عليه السلام – على تبليغ الرسالة ، واليقين كناية عن الموت وذلك لتقوية وتأييد هذا الحرص وتلك المبالغة .

وقد استهل واصل قوله:" فصلى الله على محمد وعلى آل محمد " بـــ " الفاء " التي أفادت التعقيب ، كما ساق هذا القول على صورة الخبر المراد به الإنشاء ، وهو من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والغرض من ورائه التفاؤل بتحقق المطلوب ، وكان هذا عن طريق الدعاء للنبي – عليه السلام – بـــأن يصلى الله عليه وعلى آله ، وهذا يعد تفاؤلا منه بالاستجابة .

والإضافة في قوله : " آل محمد " للتشريف والتعظيم .

وتأمل هذه المترادفات التي يصف بها صلاته على النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أفضل ، وأزكى ، وأتم ، وأنمى ، وأجل ، وأعلى صلاة " ولعل كثرة هذه الصفات وترادفها على هذا النحو ما يوحى بمدى الثروة اللغوية التي يمتلكها واصل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلعله بكثرة مترادفاته ما يغطى به عجزه في نطق" الراء " .

وتنكير" صلاة " في قوله " وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه " للتفخيم والتعظيم ، كما أن هذا التنكير مكنه من أن يصف تلك الصلاة بقوله " صلاها على صفوة أنبيائه وخالصة ملائكته " .

ويشرك واصل في الصلاة على صفوة الأنبياء مَنِ استخلصه الله – عز وجل – من ملائكته ، وفى هذا ما فيه من العناية الخاصة من واصل بهذه الصلاة على النبي – عليه السلام – .

وما سبق من تعداد لنوع صلاة الله – سبحانه – على نبيه – عليه السلام – يعد إطنابا من واصل طابق به مقتضى الحال ، وهو من التفصيل بعد الإجمال – وهو أحد صور الإيضاح بعد الإبهام .

فقد ذكر طلبه الصلاة على النبي – صلي الله عليه وسلم – وآله على طريق الإجمال ، ثم شرع يفصل في كنه وحقيقة تلك الصلاة فذكر ما ذكر .

ولعل التعبير بهذا الأسلوب يكشف عن نفس أفعمت بحب النبي – عليه السلام – . ويكشف قوله " وأضعاف ذلك " عن مبالغة مقبولة ، فكأن كل ما مضى من أوصاف للصلاة من قبيل " أفضل ، وأزكى ، وأتم ، وأنمى ، وأجل ، وأعلى صلاة " كأن ذلك كله ليس كافيا ، فقال " وأضعاف ذلك " .

ويمعن واصل في دقة تعبيره حيث اصطفى صيغة الجمع " أضعاف " ولم يصطف صيغة المفرد " ضعف " وكان في ذلك مندوحة ، لكنها المبالغة في طلب المضاعفة لتلك الصلوات علي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد فصل قوله " إنه حميد مجيد " عما قبله وهو جملة " فصلى الله على محمد ...." لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام ؛ وذلك لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية ، حيث كانت الأولى خبرية لفظا إنشائية معنى ، وكانت الثانية خبرية لفظا ومعنى ، فبينهما تباين تام ، وانقطاع كامل مما يستوجب الفصل بينهما .

قوله : " أوصيكم عباد الله – مع نفسي – بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته " قد استهله بالمضارع " أوصيكم " المنبئ عن التجدد والاستمرار مما يكشف مدى حرصه على ما ينفعهم ، كما أن طبيعة التوصية تحتاج إلى التجدد والاستمرار حتى يهتم بها ويعمل بما فيها فتتم الفائدة ويحصل المراد .

وفى قوله " عباد الله " حذف حرف النداء " يا " إذ التقدير : يا عباد الله ، ولعل وراء هذا الحذف ما يوحى بما عليه واصل من الإسراع إلى المقصود – التوصية بالتقوى – بلا مهلة.وبذا يكون حذف الحرف هنا في موضعه من البلاغة حيث كشف لنا عما يمور في نفس هذا الخطيب .

ولعل في قوله " مع نفسي " تكميل واحتراس ، كشف عن تواضع جم من واصل ، وقد يكون هذا الاحتراس داعيا قويا للاستجابة لتلك الوصية ، فمما يزيد من إقناع المخاطبين بما يلقى على مسامعهم إيحاء المتكلم لهم بأنه مثلهم يسري عليه ما يسري عليهم ، وينبغي عليه ما ينبغي عليهم .

وقد يكون لدفع توهم ، فلربما لو اقتصر على توصيتهم فحسب دون التطرق إلى توجيه هذه الوصية إلى نفسه ، لظن أنه يرميهم بعدم التقوى ، فدفع ذلك التوهم بهذه العبارة ، وهكذا تتزاحم النكات البلاغية ولا تتعارض .

وقد وصل بين قوله " أوصيكم عباد الله ...الخ " بقوله " والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته " لما بينهما من توسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملتان في الخبرية ، ولم يكن معهما سبب يقتضي الفصل بينهما ، ووجدت مناسبة تامة ، ورابطة تجمع بينهما في المعنى .

وتأمل كيف كان لهذا الوصل دوره مع التوصية بتقوى الله فهما يخرجان من مشكاة واحدة ، فالذي يعمل بطاعة الله ويجتنب معصيته سيكون – بإذن الله – من المتقين .

وقد اتكأ واصل في قوله " العمل بطاعته والمجانبة لمعصيته " على أسلوب المقابلة.

وتجدر الإشارة إلي أن " أسلوب المقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس حين يقود إلها الطبع ، فترد في الكلام سمحة منسابة ، ولعل السر في حسنها هي أنها تعين على تجلية الحقائق ، وإبراز معادنها " [١] .

وليس هنا أجلى ولا أوضح ولا أبين من العمل بالطاعة واجتناب المعصية .

وقد وصل قوله : " و أحضكم علي ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه " بقوله السابق " أوصيكم عباد الله – مع نفسي – بتقوى الله ، ....والعمل بطاعته " للتوسط بين الكمالين ؛ وذلك لاتحاد الجملتين في الخبرية .

---

١ – قراءة في الأدب القديم : ٢٨٦.

وتأمل دقة واصل في اصطفاء مفرداته من قبيل قوله : " ما يدنيكم منه ، ويزلفكم لديه" ، وانظر – كذلك – إلى " يدني " و " يزلف " وكذا إلى الحرفين " منه " و " لديه " فالدنو – كما ذكر الراغب الأصفهاني – : " القرب ...ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة " [١] لذا علقه واصل بالحرف " منه " " والزلفى : الحظوة [٢] لذا علقه بالحرف " لديه " .

وقوله:" فإن تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة في معاد " الفاء فيه للتعقيب ، فبعدما ذكر ما ذكر من التوصية بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحض على الدنو منه ، والتزلف إليه ، بعد هذا كله عقب بما عقب به .

هذا وقد صاغ جملة التعقيب فى صورة الخبر المؤكد بـــ " إن " واسمية الجملة ، والتأكيد هنا – مع أنه منظور فيه إلى المخاطبين – إلا أن واصلا صاغ هذا المعنى في ثياب التأكيد كما أحسته نفسه ، مبرزا مدى انفعاله بتلك الحقيقة .

وإيثار التعبير بصيغتي أفعل التفضيل " أفضل ، وأحسن " للمبالغة في قيمة التقوى ومكانتها ، وهذا مما يقرر ويؤكد ما رمى إليه قبل ذلك ، ومن ثم يستثير عواطف وانفعالات المخاطبين ، فلا يجدون سوى أن يصيخوا إلى قوله ويسارعوا إلى الاستجابة إليه .

والإضافتان " أفضل زاد " و " أحسن عاقبة " للإشادة والتفخيم للتقوى ، وهذا ما يزيد من إبراز قيمة التقوى ومكانتها ، وبذا تتآذر الإضافة مع صيغتي التفضيل ، وكذا تأكيد الخبر في إبراز ما رمى إليه واصل .

---

١ – المفردات في غريب القرآن : ١٧٢.

٢ – السابق : ٢١٤.

وقد وصل بين هاتين الجملتين للتوسط بين الكمالين ، فكلاهما خبر وبينهما مناسبة قوية للغاية .

هذا وقد بني واصل عبارته تلك علي أسلوب السجع المرصع ، حيث يوجد فى كلا الفقرتين من الألفاظ ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية من مثل " أفضل ، أحسن " و " زاد ، معاد " وهذا السجع مما يعطى تناغما موسيقيا يزيد من لفت وتنبيه المخاطبين لما يلقى عليهم .

وتتعالى نبرات واصل شيئا فشيئا في خطبته ، فبعد التوصية بتقوى الله وما استتبع ذلك ، هاهو يحرص على التحذير من الدنيا والركون إليها ، أبان عن ذلك أسلوب النهى " ولا تلهينكم " وقد بلغ من حرصه وتحذيره أن أتى بالفعل مقرونا بنون التوكيد.

والإضافة في قوله : " الحياة الدنيا " للتحقير والازدراء ، والإضافة تتآزر مع أسلوب النهى في الكشف عن المراد .

وتزداد نغمة التحذير من الدنيا والركون إليها حدة بإيراد واصل عددا من متعلقاتها ، تلك التي تتابعت تتابع الغيث المنهمر من قبيل : "التزين ، الخداع ، الفتنة ، الشهوة " من خلال قوله : " ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها، وخدعها، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها " .

وأول ما يلفت النظر ويسترعى الانتباه هو العطف بين هذه المتعلقات للحياة الدنيا ، وفي ذلك دلالة على بلوغ هذه الحياة الكمال في تلك الخلال السابقة ، فهي منتهى الزينة ، ومنتهى الخدع ، ومنتهى الفواتن والشهوات .، ومن ثم كان قمينا التحذير منها ومن الوقوع في براثنها .

ومن الملفت كذلك اختيار صيغ الجمع في قوله " خدعها ، فواتن لذاتها ، شهوات آمالها " وبذا تتناغى صيغ الجمع وطبيعة هذه الحياة فهي كثيرة الخدع ، جمة الفتن ، متعددة الشهوات .

وقد توالت الإضافات عن طبيعة الحياة الدنيا في العبارة السابقة ، وقد كشفت عن خبايا تلك الحياة ، مما يستلزم من العاقل أن يكون منها على حذر دائم ، وهذا ما رمى إليه واصل من خلال هذا الحشد من الإضافات .

قوله : " فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شيء منها يزول " يعد تعليلا وتعقيبا على صفات الحياة الدنيا السابقة ، وقد أفصحت الفاء في قوله : " فإنها ...الخ " عن ذلك .

وقد أكد الخبر بـــ " إن " واسمية الجملة لتفاعله وانفعاله بتلك الحقيقة ، حقيقة قلة متاع الدنيا ، وقصر مدتها ، وزوال كل شيء فيها .

هذا وقد كان واصل دقيقا للغاية فى إبراز حقارة الدنيا وهوانها ، برز ذلك من خلال اعتماده على التنكير في قوله " متاع ، مدة ، شيء " فالتنكير في كل ما سبق للتحقير والازدراء لحال الحياة الدنيا .

وأتت الإضافة في قوله " متاع قليل " تؤكد معاني التحقير والتهوين .

وقد اشتمل قوله " فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شيء فيها يزول " على لون بديعي هو مراعاة النظير.

قوله : " فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبت لكم من حبائلها [١] ، وأهلكت من جنح إليها ، واعتمد عليها " الفاء في قوله " فكم " للتعقيب فهو

---

١ – الحبالة التي يصاد بها ، وجمعها حبائل . اللسان : حبل .

يعقب على ما سبق بما يعضد به التحذير من الدنيا والركون إليها بذكر ما تحدثه الدنيا بأهلها .

ويكشف التعبير بـــ " كم " عن كثرة ما عوين من أعاجيبها ، و" كم " من الأساليب الإنشائية غير الطلبية ، وقد كانت – هنا – أداة لـــ " واصل " في إبراز كثرة أعاجيبها ، وإيقاعها أشياعها .

وفي اصطفاء التعبير بـــ " عاينتم " دون أخبرتم ، أو سمعتم – مثلا – ما يوحى بدقته في انتقاء معجمه التعبيري ، فالمعاينة أعظم وأشد من الإخبار ، فهاهو أفصح العرب – عليه السلام – يقول : " ليس الخبر كالمعاينة " [١] .

وقوله : " وكم نصبت لكم من حبائلها " موصول بقوله " فكم عاينتم من أعاجيبها " لما بينهما من توسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين في الإنشائية .

وانظر إلى هذا الوصف الدقيق المعجب لحال الدنيا في إيقاعها بمن توقع بهم ، فقد ساق واصل لنا هذا الوصف من خلال الاستعارة المكنية في قوله " نصبت لكم من حبائلها " ، حيث شبه الدنيا بصائد ينصب حباله الآخرين ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله " نصبت " على سبيل الاستعارة المكنية ، وإثبات لازم المشبه به وهو " نصبت " للمشبه وهو " الضمير " المستكن في " نصبت " استعارة تخييلية أوحت بأن هذه الدنيا شديدة الاحتيال والإيقاع بأهلها .

وقد تجلى لنا كيف أفرغ واصل على الصورة البيانية السابقة من فيض حسه وروحه وحرصه على مخاطبيه من الركون إلى الدنيا ، إلى درجة استحالة الأشياء

---

١ – الحديث في شرح صحيح البخاري – لابن بطال البكري القرطبي – تحقيق / أبي تميم ياسر بن إبراهيم – كتاب الصيام : ١٣٤/٤– مكتبة الرشيد – السعودية – الرياض – ط ثانية ١٤٢٣هـــ –٢٠٠٣م .

المعنوية " الدنيا " إلى أشياء محسة ومجسدة ويخوف منها ، وبذا كانت الاستعارة المكنية خير معين أعان واصل في التخويف من الدنيا وحبائلها .

كما لا يخفى ما في ذلك من المبالغة في تصرف الدنيا تصرف الإنسان القادر الحاذق الماهر الحريص على إيقاع الآخرين في براثنه .

هذا وللإمام علي – كرم الله وجهه – تعبير عن الدنيا يأتي في ذلك المعنى وهو قوله " فكم رأينا وأنتم من كان بالدنيا مغترا فأصبح في حبائل خطوبها....." [١] فلعل واصلا متأثر به في ذلك .

وقوله : " وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها " هاتان الجملتان موصولتان بما قبلهما

لاعتلا قهما وشدة ارتباطهما ، فبينهما توسط بين الكمالين ، والجمل الأربع كلها إنشائية .

والملفت للنظر هنا أن واصلا قد حذف " كم " من الجملة الأولى في قوله " وأهلكت من جنح إليها إذ التقدير : وكم أهلكت ، أما الجملة الآخرة " واعتمد عليها " ففيها أكثر من محذوف ، والتقدير: وكم أهلكت من اعتمد عليها ؟

وفي الحذف ملحظ الاتصال الفطن بين المتكلم و المخاطب ، فلما كان حذف ما حذف بدهيا لم يذكره واصل، إما احترازا عن العبث ، وإما تغييرا لوتيرة الحديث حتى يدفع ما قد يحدث مللا للسامع وذلك ما يحسب لواصل ، فهذه من صفات

---

١ – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد – تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم : ٥/ ١٥٠– دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبي وشركاه . د . ت .

الخطيب البليغ ، الذي ينوع في أساليبه مابين ذكر وحذف ، وتقديم وتأخير ، وإيجاز وإطناب ، ومن تعود حذف فضول الكلام " [١] .

والحق فلقد أسمعنا واصل صوت الخوف والحذر من الدنيا بهذا الأسلوب الإنشائي غير الطلبي " كم " تارة بذكره ، وأخري بحذفه ، وفي ذلك ما يدحض القول بأن الأساليب الإنشائية غير الطلبية ليس فيها من المباحث البيانية التي تستأهل لأن يذكرها البلاغيون ويتناولونها بالدراسة ، فقد استعان بها واصل في التحذير والتخويف من الدنيا ، وكشف حقيقتها وكان موفقا في ذلك إلى شأو بعيد .

والناظر في الجمل الإنشائية غير الطلبية التي أوردها واصل يجدها جميعا قد احتوت على أفعال ماضوية " عاينتم ، نصبت ، أهلكت ، جنح ، اعتمد " وكذلك فيما سيأتي من قبيل قوله " أذاقتهم ، ومزجت " والتعبير بالماضي أبان عن تحقق كل ما ذكر وثبات حصوله مما يقوى معاني التخويف وعدم الركون إلى الدنيا ، فضلا عن أن الفعل الماضي يفيد الدوام والاستمرار ، أي فهذا هو حال الدنيا الدائم .

قوله : " أذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سما " قد فصل عما قبله لكمال الانقطاع بلا إيهام حيث اختلفت جملة " أذاقتهم حلوا " عن التي قبلها وهى " واعتمد عليها " – والتي حذفت منها " كم " – فهي جملة إنشائية ، فلما اختلفت الجملتان بين الخبرية والإنشائية فصل بينهما ؛ لأن العطف بينهما يقتضى التآلف والتناسب وهما متباينتان تباينا تاما .

وتأمل جمال الاستعارة التبعية في قوله " أذاقتهم حلوا " حيث شبه ما تحدثه الدنيا بهم من أمور تسرهم بالإذاقة ، ثم اشتق من الإذاقة الفعل " أذاقتهم " على سبيل

---

١ – البيان والتبيين :٦٤.

الاستعارة التبعية التهكمية، وقوله " حلوا " ترشيح وتقوية لهذه الاستعارة ، وقد كشفت هذه الاستعارة عن مدى ما يستلذه الناس مما يقدر لهم في الدنيا من أشياء يسعدون بها .

هذا ويمكن أن تكون الاستعارة مكنية بتشبيه الدنيا بعدو يدس السم لعدوه فى الشراب ، وقد حذف المشبه به ، ورمز له بشئ من لوازمه وهو الإذاقة ، وإثبات الإذاقة للدنيا استعارة تخييلية ، وهى بدورها قرينة للمكنية .

وقوله " ومزجت لهم سما " موصول بقوله " أذاقتهم حلوا " فبينهما وصل للتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملتان في الخبرية ، وبينهما ما بينهما من المناسبة التامة التي تكشف أحوال الدنيا على حقيقتها ومدى تقلبها وغدرها بأهلها .

وفى قوله " مزجت لهم سما " استعارة تبعية حيث شبه ما تضمره لهم الدنيا من أحزان وأتراح ومحن وإحن بمزج السم ، ثم اشتق من المزج " مزجت " على سبيل الاستعارة التبعية ، وقوله " سما " ترشيح وتقوية لتلك الاستعارة ، وقد أبانت الاستعارة عن مدى ما يصاب الناس من شديد البلايا وعظم المصائب في تلك الدنيا .

وقد أفصحت الاستعارتان مجتمعتين عن أن الدنيا بهذه الحال وتلك الصورة مما لا ينبغي لعاقل أن يركن أو يطمئن إليها ، وبذلك كانت الاستعارة إحدى الأدوات التعبيرية التي استعان بها واصل للتنفير من الدنيا وعدم الجنوح إليها .

وفي العبارتين " أذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سما " سجع متواز .

وقوله " أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد "

تأمل كيف تغلب معاني العظة والاعتبار على هذه الكلمات ، فالاستفهام في قوله " أين الملوك ...الخ " يكشف عن التذكير والعظة وأخذ العبرة من هؤلاء الذين لقوا حتوفهم وكان بيدهم ما كان .

وتأمل تلك الصفات المتتابعة التي وصف بها هؤلاء الملوك البائدين التي تشير إلى مدى سيطرتهم على الدنيا ثم زالوا وزالت دنياهم.

وقد وصل بين هذه الصفات بالواو لما بينها من توسط بين الكمالين ، حيث اتحدت جميعها في الخبرية وبينها مناسبة تامة وقوية .

وهذا الوصل يشير إلى احتواء وسيطرة الملوك على كل هذه الصفات من بناء للمدائن ، وتشييد للمصانع .....الخ ، ومع ذلك فلم يشفع لهم ذلك عند الدنيا ، فما كان منها إلا أن أهلكتهم وجعلتهم عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والتعبير بالأفعال الماضية " بنوا ، شيدوا ، أوثقوا ، كاثفوا ، أعدوا ، ملكوا ، استخدموا " تلقى بظلالها في إبراز معاني الفناء والبوار والهلاك ، علاوة على تحقق وثبوت كل هذا منهم ، مع دوامه واستمراره .

وواصل يصطفي مفرداته بعناية – رغم ارتجاله – فتأمل هذين الفعلين " بنوا " و " شيدوا " ولكل دلالته ، ففي اللسان " المصانع في قوله – تعالي – " وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ " [١] أنها – على قول بعض المفسرين [٢] – " الأبنية " [٣] .

---

١ – سورة الشعراء الآية : ١٢٩.

٢ – جامع البيان في تأويل القرآن للطبري – تحقيق / أحمد محمد شاكر : ١٩/ ٣٧٦– مؤسسة الرسالة – ط أولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٣ – اللسان : مادة " صنع " .

ولكن هذا لا يستقيم وما أورده واصل ، إذ لو كان المقصود بالمصانع الأبنية لما غاير بين الفعلين ، وقال " بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع " وكان أن أوقع الفعل " بنوا " للمدائن والمصانع ، بينما في المفردات للراغب الأصفهاني :" المصانع يعبر بها عن الأمكنة الشريفة " [١] ، وهذا هو الأولى والأقرب ، إذ " الصنع يعنى : إجادة الفعل " [٢] .

وهذا ما يتواءم مع المصانع التي بمعنى الأماكن الشريفة ، ومن هنا آثر واصل الفعل " بني " للمدائن ، والفعل " شيد " للمصانع ،" ويقال شيد قواعده ، أي أحكمها ، كأنه بناها بالشيد " [٣] .

وقد احتوى القول السابق على السجع المتوازي بين " أوثقوا الأبواب وكاثفوا الحجاب " حيث اتفقت الكلمتان الأخيرتان من السجعتين في الوزن والحرف الأخير .

وكذلك كان السجع المتوازي في الفقرات الثلاث التالية : " أعدوا الجياد ، ملكوا البلاد ، استخدموا التلاد " ، وكان له دوره في إشاعة جو من الموسيقى الداخلية بين الكلمات مما يثير المخاطب ويلفت انتباهه فيعي ما يلقى عليه .

ولا يخفى الجناس بين " البلاد، والتلاد " وهو من الجناس اللاحق ، وأحسب أن هذا التجنيس من واصل كان من القبول والحسن بمكان حيث جاء منه عفو الخاطر، إذ المعني هو الذي اقتضاه ، ولذلك يقول الإمام عبد القاهر: " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه

---

١ – المفردات : ١٨٧.

٢ – السابق : ١٨٦.

٣ – المفردات : ٢٧٠.

وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولا ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه " [١]

وانظر إلى هذه المدود في الكلمات السابقة " المدائن ، المصانع ، أوثقوا الأبواب ، كاثفوا ، الحجاب ، أعدوا ، الجياد ، ملكوا ، البلاد ، استخدموا ، التلاد " انظر إليها وهى تضفي على الكلمات قدرا من المشاعر المفعمة بالأسى على الذين استكانوا إلى الدنيا فغدرت بهم .

هذا وكان للمجاز العقلي نصيب في قول واصل السابق ففي قوله " الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد " مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث تم إسناد الأمور السابقة إلى الملوك ، والحق أن الملوك لا يفعلون ذلك بأنفسهم ، بل هم سبب في البناء ، والتشييد ، والتوثيق للأبواب ، ومكاثفة الحجاب ، وإعداد الجياد " وقد كشف المجاز العقلي هنا عن مدى عناية واهتمام هؤلاء الملوك بتلك الأمور التي تؤكد انغماسهم في حب الدنيا حبا جما ، كما تؤكد بلوغهم الغاية في تمكنهم من الدنيا حتى ظنوا أنهم قادرون عليها ، فأصبحوا حصيدا كأن لم يغنوا بالأمس ، وبذا يكون للمجاز العقلي دوره هنا في التخويف والتحذير من الركون إلى الدنيا ، ومن هنا أثنى شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر على هذا النوع من المجاز حيث قال : " وهذا الضرب من المجاز على حدته كتر من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان " [٢] .

---

١ – أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / محمود محمد شاكر: ١١– مطبعة المدني – ط – أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٢ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / محمود أحمد شاكر :٢٩٥– مطبعة المدني – ط الثالثة – ١٤١٣هـ –١٩٩٢م.

هذا وقد فصل قوله : " قبضتهم بمحملها ، وطحنتهم بكلكلها ، وعضتهم بأنيابها ، وعاضتهم من السعة ضيقا ، ومن العزة ذلا ، ومن الحياة فناء " فصله عما قبله لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية ، حيث كانت الأولى إنشائية " أين الملوك ...؟ " والثانية خبرية " قبضتهم بمحملها .....الخ " وليس في الفصل هنا ما يوهم خلاف المراد.

وبالتأمل في تلك الصفات التى خلعها واصل لمكر الدنيا بأهلها تجد فيها تحقيقا لحقيقة هذه الدنيا ومكرها بأهلها تحقيقا يشير إلى إحساس عميق بالدنيا وطبيعتها، ومن ثم يعكس واصل ما أحسه بهذه الصور وتلك الكلمات .

وقد استعان واصل في التحذير من الدنيا بتلك الصور البيانية من خلال الاستعارة التبعية حيث قال : " قبضتهم بمحملها " فقد شبه إحاطة وتمكن الدنيا من أهلها بالقبض ، ثم اشتق من المصدر " القبض " الفعل " قبضتهم " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وعطف عليها استعارة أخرى هي قوله " وطحنتهم بكلكلها " وهي استعارة مكنية توحي بمدى إنهاك وإهلاك الدنيا لهؤلاء المستميتين عليها ، ثم أتى باستعارة ثالثة مكنية – أيضا – في قوله " وعضتهم بأنيابها " وقد كشفت هذه الاستعارة عن نيل الدنيا من هؤلاء نيلا عظيما ومؤلما .

وغني عن البيان أن التعبير عن سيطرة الدنيا وإيقاعها بمحبيها والنيل منهم – وهي كلها أمور معنوية – تعبير عن الشيء المعنوي بشيء يرى ويحس ، وهو تصوير مؤثر وموح ، يهز النفس ويثير الخيال .

كما لا يخفى أن في اصطفاء واصل في تصوير حال الدنيا أسلوب الاستعارة دون غيره من الصور البيانية الأخرى من تشبيه وكناية ، فلعل ذلك راجع لما

للاستعارة من شدة المبالغة ودقة التصوير وتعدد المعاني ، وفي ذلك المضمار يقول شيخ البلاغيين عنها : " أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج

من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر " [١] .

وقوله " كلكلها " معناه : صدرها ، وقد استعاض به واصل تجنبا لحرف " الراء" .

كما تحس فيه شيئا من الثقل في النطق ناجم من تكرار حرفي :"الكاف " ، و" اللام " وهو لفظ فصيح – على ثقله – ؛ لأن إبراز الثقل هنا هو المراد ، حيث يتواءم مع الطحن ، حيث قوله " طحنتهم بكلكلها " فالكلمة برسمها وجرسها قد صورت المراد خير تصوير، ويزداد الأمر فخامة وقوة حينما نستحضر وقوف واصل مرتجلا هذه الخطبة التي شملت من جملة ما شملت هذه الكلمات الدقيقة المعبرة والموحية .

وقد وصل قوله : " وعاضتهم [٢] من السَّعَةِ ضيقا، ومن العزة ذلا، ومن الحياة فناء " على سابقه لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، فكلها جمل خبرية عطف بعضها على بعض ، وفي هذا الوصل تأكيد على حال الدنيا المتبدل المتقلب الغادر ، وبذا يزيد واصل من التنفير منها .

هذا وبين قوله " وَعَضَّتهم ..... " وقوله " وَعَاضَتْهُم ...الخ " جناس ناقص أحدث تلك الموسيقى الداخلية بين الكلمات ليزيد من استثارة الانتباه ولفت العقول .

لاسيما وقد انتهى إلى ذروة التحذير من الدنيا بإماطة اللثام عن صفاتها تلك .

---

١ – أسرار البلاغة :٤٣.

٢ – العوض : البدل ، تقول عضت فلانا وأعضته وعوضته إذا أعطيته بدل ما ذهب منه . اللسان : " عوض" .

وكان يمكن لواصل أن يستبدل بقوله " عاضتهم " كلمة " أبدلتهم " وكانت ستقوم بالمعنى الذي أمَّه ، إلا أن ذلك سيذهب بذلك الرونق والتواؤم والموسيقى الذي أحدثه الجناس الناقص بين الكلمتين .

وتأمل الطباق بين " السعة والضيق " و " العزة والذل " و " الحياة والفناء " وكيف أسهم في إبراز تناقض حال الدنيا وتقلبها ، كما أنه ورد عفو الخاطر وبلا تكلف فكان " وفاء بالمعنى ووفاء بالإيقاع " [١]

والفاء في قوله " فسكنوا اللحود " أفادت التعقيب والسرعة ، فسكنى هؤلاء اللحود أتى في عقب إفناء الدنيا لحياتهم ، هكذا بلا ريث ولا إبطاء ، ومن ثم فلا ينبغي لعاقل أن يركن إليها مهما تزينت له .

وقوله " فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدود " كنايتان عن موتهم وفنائهم ، وقد كان لهاتين الكنايتين موقعا حسنا لورودهما عقب قوله " ومن الحياة فناء " فكان ذلك بمثابة النهاية المنطقية للإنسان مهما يطول بقاؤه في هذه الحياة .

هذا و التعبير بـــ " سكن اللحود " تعبير متداول بين بعض العلماء، فمن ذلك قول ابن الجوزي يخطب فيقول : "... فذو الوصال منهم مهجور، سكنوا بعد الودود مع الدود في اللحود " [٢] .

ولا يخفى دور السجع المتوازي في قوله " فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدود " وما أحدثه من موسيقى ولفت للانتباه .

---

١ – البد يع تأصيل وتجديد ، منير سلطان :١١٩ – منشأة معارف الإسكندرية – ١٩٨٦م .

٢ – المدهش ، لأبي الفرج ابن الجوزي ، تحقيق / د: مروان القباني : ٥٤٠– دار الكتب العلمية – بيروت – ط ثانية – ١٩٨٥

ويقتبس واصل – كعادته – في خطبته هذه من القرآن الكريم بقوله " وأصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم " إذ اقتبس ذلك من قوله تعالى " فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ " [١]

ومن الوضوح بمكان أنه استعاض عن قوله " يُرَى " بقوله " تُعَايَنُ " ، هروبا من " الراء " ، وكان في اقتباسه هذا الجزء من الآية لإلقاء مزيد من الوعظ والتذكير بمآل الدنيا ، خاصة أولئك الذين أشار إليهم في خطبته من قوله " أين الملوك الذين بنوا المدائن؟ وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحُجَّابَ، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد " ، ولقد كان واصل أكثر توفيقا في هذا الاقتباس – لاسيما في هذه الجزئية من خطبته – حيث إنه طابق مقتضى الحال الذي ساق فيه خطبته ، فهو يخطب في مقام تهنئة خليفة تقلد زمام الحكم والأمور ، وأمسك بأزمة مقاليد البلاد ، وصار متحكما ومسئولا عن العباد .

فهو مطابق لمقتضى الحال ؛ لأنه بما فعله في خطبته تلك ، إنما كان " يمثل تيار الوعظ الديني الذي برز قويا أواخر العصر الأموي ، والذي يدعو إلى رفض الدنيا والتحذير منها وعبر عنه الشعراء والخطباء [٢] .

وبذا يكون واصل قد طابق مقتضى الحال ، وكان فصيحا أيما فصاحة ، وهذه هي البلاغة ، يؤكد ذلك ويعضده أن هذا الوالي الجديد الذي قيلت له هذه الخطبة قد

---

١ – سورة الأحقاف من الآية :٢٥، هذا وقد قرأ " عاصم وحمزة ويعقوب وخلف " يُرى " بياء من تحت مضمومة بالبناء للمفعول " مساكنهم " بالرفع نائب فاعل ...وهناك قراءة عن الحسن بضم التاء " تُرى " من فوق مبنيا للمفعول " مساكنهم " بالنصب مفعولا به ...." ينظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، ويسمى " منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات ، لشهاب الدين محمد الدمياطي – تحقيق : أنس مهرة : ١/ ٥٠٥ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م

٢ – خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٩١.

أعجب بها أيما إعجاب ، بل وكان من إعجابه بواصل أيضا " أن ضاعف له الصلات وميزه عمن سواه في العطاء ، وانتقل خبر خطبته في الآفاق ، وحفظها التاريخ بفخر واعتزاز [١] .

والناظر في معنى هذه الآية السابقة يجد أنها كانت عبارة عن " استخلاص لموعظة المشركين بمثل " عاد " ، ليعلموا أن الذي أهلك عادا – وقد قالوا: من أشد منا قوة – قادر على إهلاك من هم دونهم في القوة والعدد ... والخطاب في " لا ترى " لمن تتأتى منه الرؤية حينئذ إتماما لاستحضار حالة دمارهم العجيبة " [٢] .

وأتى قوله " ولا تجد إلا معالمهم [٣] " معطوفا على قوله " لا تعاين إلا مساكنهم " والمعنى ولا تجد أيها الباحث عن هؤلاء الذين ظنوا أنهم قادرون على الدنيا لا تجد إلا آثارهم دالة على زوالهم .

وإذا كانت كلمة " مساكنهم " في الجملة الأولى – والتي وردت عن طريق الاقتباس– تعنى : آثار المساكن وبقاياها وأنقاضها بعد قلع الريح معظمها [٤]، إذا كان ذلك كذلك ، فإن كلمة " معالمهم " في الجملة الثانية تكرار للمعنى الأول مما يؤكد ويقرر تلك الزلزلة العنيفة التي تحدثها الدنيا بأهلها ، فكأنها لا تبقي ولا تذر إلا أطلالا متقادمة ومنازل مدروسة .

والحق فإن في ذلك متابعة واعية من واصل في توالى هذه المعاني لديه ، ومما يلفت الانتباه أنه ساق ما ساقه من خلال أسلوبين للقصر بأداة النفي والاستثناء ،

---

١ – السابق: ٣٨٨.

٢ – ينظر : التحرير والتنوير : ٥١/٢٦.

٣ – المعلم : الأثر . اللسان " علم " .

٤ – ينظر : التحرير والتنوير: ٥١/٢٦.

حيث قصر في الأول منهما الرؤية على المساكن من باب قصر الصفة على الموصوف ، وكذلك قصر في الأسلوب الثاني الوجدان – أي وجود الشيء – على المعالم والآثار ، قصر صفة على موصوف أيضا ، وتكرار القصر هنا تأكيد وتقوية للمعاني التي أمها واصل .

ولعلك تلحظ من خلال اصطفاء أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء في هذا السياق ، سياق إبادة الدنيا لأهلها وتحويل مدنهم وبلادهم وبيوتهم إلي آثار وأطلال بالية دارسة ، لعلك تلحظ بأن هذا شيء مما لا يؤخذ بعين العبرة والعظة ، فكأن واصلا قد نزَّل هؤلاء المخاطبين منزلة من ينكر أن الدنيا تفعل ذلك بأهلها ، فاصطفى لذلك طريق النفي والاستثناء ؛ لأن هذا الطريق يستعمل فيما يكون للمخاطب فيه إنكار وشك، فَيُخَاطَبُ بما يدفع هذا الشك ويزيل ذلك الإنكار.

ولذلك نجد الإمام عبد القاهر يقول في ذلك الصدد : " وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب ، أو : ما هو إلا مخطئ ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر ، وَيَجِدُّ في الإنكار أن يكون زيدا [١]

وبذا يكون واصل قد راعى مقتضى الحال في هذا المقام بتنزيلهم منزلة من يشك في فعل الدنيا هكذا بأهلها ، ولعله صنع ما صنع لما رأى من حالهم من أنهم يبنون المدائن ويشيدون المصانع .....الخ ، فكان فعلهم فعل من يري أنه مخلد في الدنيا ، ولا يصيبه شيء ، فخاطبهم بهذا الخطاب .

---

١ – ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٥٥.

ويسترسل واصل في اقتباسه من القرآن الكريم فيقول عاطفا على ما سبق " ولا تحس [١] منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبسا [٢] وهو مقتبس من قوله تعالى " .... هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا "وهذا وصف كاشف وتعبير خصب ، علاوة على أنه تعبير وراءه ما وراءه من حسرة والهة على هؤلاء الغابرين الذين مضوا وزالوا واضمحلوا .

وكأن واصلا يتدرج في وصف ما تفعله الدنيا بأهلها ، فبعد أن أرانا أنها أبادت وأهلكت مساكنهم فلم تبق إلا الآثار والأطلال ، شرع يبرز لنا أنها تبيد الأهل بعد ذلك ، وقوله " لا تحس منهم من أحد " أي لا تري منهم أحدا، وقوله الآخر " ولا تسمع لهم نبسا " أي نطقا ، فلن ترى من أحد ولن تسمع من كلام ، وعلى ذلك يكون هذا التعبير كناية عن اضمحلالهم ، حيث كنى باضمحلال لوازم الوجود – الرؤية وسماع الكلام – عن اضمحلال وجودهم [٣] ومما يلحظ هنا أن واصلا عدل بقوله " نبسا " عن قوله " ركزا " لمجانبته حرف الراء .

وقوله " فتزودوا عافاكم الله ،فإن أفضل الزاد التقوى " الفاء فيه للتعقيب ، حيث إن الأمر بالتزود أتى في عقب إبراز ما تصنعه الدنيا بأهلها ، كما أن هذه الفاء ربطت أول الكلام بآخره .

وقد استعان واصل بالإنشاء الطلبي من خلال الأمر " فتزودوا " مبرزا معاني النصح والإرشاد لهم ، وفي الكلام إيجاز بالحذف ، ويكون بحذف " جزء جملة ، أو جملة

---

١ – تحس : أي تبصر أو ترى ، اللسان " حسس ".

٢ – النبس : هو أقل الكلام ، وما نبس بكلمة : أي ما تكلم ، اللسان " نبس " .

٣ – التحرير والتنوير : ١٦/ ١٧٧بتصرف قليل .

أو أكثر من جملة[١]" حيث حذف متعلق الفعل " فتزودوا " – وإن كان المتعلق واضحا جليا ، ألا وهو " التقوى " – وفي هذا الحذف تشويق واستثارة للأنظار كى تعي قيمة المحذوف ، وللحذف قيمته البلاغية فهو " باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر[٢] .

وكما استعان واصل بالإنشاء استعان بالخبر في قوله " عافاكم الله " فهو خبر مراد به الإنشاء ، فهى جملة دعائية بالمعافاة من بلايا الدنيا وأفاعيلها ، وكان لهذا الأسلوب وقعه هنا ، حيث كان بمثابة بلسم أزال جراحات وآلام أدمت القلوب من تبين حال الدنيا بأهلها .

وقد أحسن واصل أيما إحسان حيث ساق هذا الخبر معترضا بين أسلوب الأمر " فتزودوا " ، وبين قوله " بعد ذلك " فإن أفضل الزاد التقوى " ، وغرض واصل من وراء الاعتراض هنا الدعاء .

وهكذا بدت مقدرة واصل البيانية في صورة جلية ، حيث جمع بين الإيجاز والإطناب ، وكذلك جمع بين الإنشاء و الخبر ، وذلك من خلال جملتين اثنتين هما " فتزودوا عافاكم الله " .

وفي قوله السابق – أيضا – " فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى " لون بديعي وهو رد العجز على الصدر.

والفاء في قوله " فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون " هي فاء التفريع ، حيث إن هذا الكلام متفرع عما قبله ، وهو تعليل لما

---

١ – الإيضاح : ١٧٧.

٢ – دلائل الإعجاز : ١٢١.

سبقه ، وكأن سائلا سأل لماذا التزود من التقوى ، فكان التعليل بعد هذه الفاء بأنها أفضل الزاد ، وما قبل فاء التفريع علة لما بعدها [١] .

وواصل في قوله السابق مقتبس من القرآن الكريم من قوله تعالى :" وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ [٢] .

ويلاحظ على جل اقتباسات واصل أنه يطرأ عليها بعض التغييرات كما في هذا الاقتباس ، فإنه عدل عن " خير " إلى " أفضل " هربا من " الراء " ، كما عدل عن " واتقون " إلى " واتقوا الله " للبون الشاسع بين المخلوق والخالق ، بين المتكلم الناصح بالتقوى ، وبين من يجب أن يُتَّقَى جل الله في علاه ، وهذا التغيير في الاقتباس لا يغض منه حيث قولهم " ولا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن أو غيره " وهذا ما وقع هنا ، ودائما ما يقع لواصل ، حيث يضطره حرف الراء أحيانا ، وتضطره أشياء أخرى في أحايين كثيرة .

هذا وقد تكرر ذكر التقوى في خطبة واصل عدة مرات ، حيث أوردها مذكورة بلفظها في عدة مواضع هي " فإن أفضل الزاد التقوى " ، و " واتقوا الله " ، و" أبلغ مواعظ المتقين " ، وذكرها مقدرة – من خلال الإيجاز بالحذف – في قوله " فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى " .

والتكرار صورة من صور الإطناب يأتي لتأكيد المعاني وتقريرها ، وهكذا كان مقصد واصل من وراء تكراره ذكر التقوى ، ولعلها هي بيت القصيد في خطبته تلك ، فإن التحذير من الدنيا والركون إليها إنما مبعثه من تقوى الله الذي يجعل من الدنيا وسيلة لا غاية .

---

١ – حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك : ١٣٤٨.

٢ – سورة البقرة من الآية :١٩٧.

كما أن وراء هذا التكرار ربط معاني الكلام بعضه ببعض وتأكيده وتقريره .

ويلحظ على واصل أنه ساق الحث على التقوى من خلال الخبر المؤكد بـــ" إن " ، واسمية الجملة " فإن أفضل الزاد التقوى " ، وقد سبقت الإشارة إلى أن تأكيد الخبر ليس منظورا فيه دائما إلى حال المخاطب – فهم هنا ليسوا منكرين هذه الحقيقة ، ولا مترلين مترلة المنكرين – ولكن قد يكون إحساس المتكلم بهذه الحقيقة مفعما ، الأمر الذي يدفعه دفعا إلى الجنوح صوب التأكيد .

هذا ويمكن القول أن واصلا لعله رأى من انصراف الناس إلى الدنيا وتشاغلهم بها إلى درجة تقصيرهم في طلب الآخرة ما جعله يترلهم مترلة من لا يكترث بقيمة وأهمية التقوى ، من أجل ذلك كرر لهم وأكد وأبدى وأعاد،فيكون ذلك من خروج الكلام علي خلاف مقتضى الظاهر بتترل غير المنكر مترلة المنكر.

والنداء في قوله " يا أولى الألباب " فيه تترل للقريب مترلة البعيد ، حيث أتى بأداة نداء البعيد " يا " مع أن المخاطبين أمامه قريبين منه ، ولكنه نزلهم مترلة اللاهين المشغوفين بالدنيا ولذاتها ، ومن أغراض النداء – حينما يترل البعيد مترلة القريب – التنبيه على أن المنادى غافل لاه عن هذا الأمر .

هذا ويمكن حمل النداء هنا على عظم الأمر وعلو شأنه ، وهل هناك أجل وأعظم من لزوم التقوى ، فهي التي تكسب معية الله، وحبه وولايته، وتقبله الأعمال ، ويجعل صاحبها في جنات وعيون ومقام أمين .

ولا غضاضة في أن يحمل أسلوب النداء هذه المعاني قاطبة فنكات البلاغة تتزاحم ولا تتعارض.

وقوله " لعلكم تفلحون " إنشاء غير طلبي غرضه الرجاء بالفلاح والفوز ، وقد أتي عقب الحث على التقوى والمناداة بصفة عظيمة هي أصحاب العقول والألباب .

وورود الرجاء بالفلاح عقيب ذلك أشبه بالنتيجة للمقدمة ، فكان كلاما مترابطا متناغما متآزرا يشد انتباه المخاطب ويلزمه الحرص على التقوى.

وقوله " جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظه وسعادته " خبر مراد به الدعاء ، فهو يدعو لنفسه ولمخاطبيه بالانتفاع بالمواعظ ، والعمل للسعادة.

وقد فصل واصل بين هذا القول وسابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية ، فكانت الأولى " واتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون " إنشائية لفظا ومعنى ، وكانت الثانية " جعلنا الله وإياكم ...الخ " خبرية لفظا إنشائية معنى فبينهما تباين تام .

هذا وفي الفصل لاختلاف الجمل بين الخبرية والإنشائية في هذا المقام لا يخلو من استثارة للذهن ولفت للانتباه لاسيما في نهاية الخطبة ، وفي أهم جزء فيها وهو الحث والحض والنصح بالتقوى .

وقوله " وممن يستمع القول فيتبع أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " معطوف على قوله " جعلنا الله وإياكم ....الخ" وهو مقتبس من قوله تعالى " الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ " [1] .

---

١ – سورة الزمر : ١٨.

ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع في قوله " يستمع " و" فيتبع " من إفادة تجدد واستمرار الاستماع والاتباع .

واسم الإشارة " أولئك " أبان عن تمييز المسند إليه أكمل تمييز ، فهم المهتدون وهم أولوا الألباب، ولعل في تكرار اسم الإشارة – هنا– مما يقوى ويؤكد تلك المعاني .

كما أن التعبير بالموصول " الذي" قد يشير إلى وجه بناء الخبر ، ومثل ذلك " كثير جدا في كتاب الله حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيئ النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به [١] .

وقوله " إن أحسن قَصَصِ المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين، كتاب الله الزكية آياته، الواضحة بيناته " أتى مفصولا عن سابقه لتباين الجملتين ، حيث كانت الأولى خبرية لفظا إنشائية معنى ، وهى جملة " جعلنا الله وإياكم ..الخ " والثانية خبرية لفظا ومعنى .

وواصل هنا ينبري للحديث عن القرآن الكريم فيستهل ذلك بالخبر المؤكد بـــ " إن " واسمية الجملة ، وفي هذا كشف لمدى ما تنفعل به نفسه حول هذا الكتاب ، إذ لا يمكن حمل التوكيد على التنزيل هنا ، فهو خبر مؤكد غرضه الحث والحض على الانكباب على تلاوة وسماع القرآن الكريم .

وقد أطنب واصل فى الحديث عن القرآن تشويقا وحثا وترغيبا ، بخلاف ما لو قال " إن أحسن القصص كتاب الله " .

---

١ – خصائص التراكيب : ١٦٦.

ووقعت صيغتا أفعل التفضيل " أحسن " و" أبلغ " موقعا حسنا في هذا الموطن من الكلام عن القرآن مبالغة في مكانته وشرفه .

وأتت الإضافتان " قصص المؤمنين " و " مواعظ المتقين " متوائمتين ومتناغيتين مع هذه المبالغة .

كما أن الإضافة في قوله " كتاب الله " فاقت الإضافتين السابقتين عظمة وفخامة ؛لأن عظم الكتاب في هذه الإضافة الأخيرة إنما هو مستمد من اسم " الله " العظيم .فالإضافة إضافة تشريف وتعظيم وإجلال .

وقوله " الزكية آياته ، الواضحة بيناته " استرسال واستعذاب وزيادة حث على مكانة هذا الكتاب الجليل ، وعلى قيمة آياته البينات .

وقوله " فإذا تليت عليكم آياته فأنصتوا له واستمعوا لعلكم تفلحون " تجد فيه " الفاء " للتفريع ؛ لأن هذا الكلام تفرع عن الكلام السابق ، وفيها معنى العطف ، والعطف هنا هو عطف قصة على قصة ، أي عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، والمعطوف هنا هوا لحث على الإنصات للقرآن عند تلاوته .

وبناء الفعل للمجهول إشارة إلى أن مدار الأمر القراءة من أي قارئ كان ، وفيه من الدلالة على تعظيم شأن القرآن مالا يخفى [١] .

وأسلوبا الأمر " فأنصتوا ، واسمعوا " أبانا عن النصح والإرشاد بالإنصات والاستماع لكلام الله عز وجل .

---

١ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،للألوسي :٦/ ٤٩٨– دار إحياء التراث العربي – بيروت – د.ت.

وغير خاف اقتباس واصل من القرآن في قوله هذا من قوله تعالى " وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " [١]إلا أنه استبدل " قرئ " بـــ " تلي " ، واستبدل " ترحمون " بـــ " تفلحون " هربا من الراء .

كما أنه قدم الإنصات على الاستماع على خلاف الآية الكريمة " والفرق بين الاستماع والإنصات ، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم الأمرين حين يتلى كتاب الله ، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا ، وإيمانا مستمرا متجددا ، وهدى متزايدا ، وبصيرة في دينه ، ولهذا رتب الله – تعالى – حصول الرحمة عليهما ، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب ، فلم يستمع له وينصت ، أنه محروم الحظ من الرحمة ، قد فاته خير كثير [٢] .

ومما يمكن أن يؤخذ على واصل في اقتباسه هذا أنه عدل عن " فاستمعوا " إلى " واسمعوا " دون داع يدعوه إلي ذلك ، فليست تلك الكلمة مما احتوت حرف الراء ، يضاف إلي ذلك أن هناك فرقا شاسعا بين "سمع " و" استمع" – فالثانية واردة علي صيغة افتعل ، أي طلب الاستماع – ؛ وذلك لأن الله – تعالى – قال : { فاستمعوا لَهُ } ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة – رضي الله عنه – حيث

---

١ – سورة الأعراف :٢٠٤.

٢ – تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن ناصر السعدي – تحقيق / عبد الرحمن معلا اللويحق :١٧٦– مؤسسة الرسالة – ط أولى – ١٤٢٠هـــ – ٢٠٠٠م .

قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –« لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » [١].

وفي هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس [٢] .

وقوله " أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي إن الله هو السميع العليم :" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كفوا أحد ، [٣] .

تجده قد فصل هذا القول عما سبقه لتباين الجملتين في الخبرية والإنشائية ، فجملة : " واسمعوا لعلكم تفلحون " إنشائية لفظا ومعنى ، وجملة " أعوذ بالله ....الخ " خبرية لفظا إنشائية معنى .

والتعبير بالمضارع " أعوذ " أبان عن استمرار وتجدد هذه الاستعاذة .

وفي قوله : أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي " مقابلة لطيفة ، حيث قابل بين قوة الله جل في علاه ، وغواية الشيطان الرجيم ، والحق فإن المقابلة أسلوب من الأساليب المحببة إلى النفوس حين يقود إليها الطبع ، فترد في الكلام سمحة منسابة ، ولعل من أسرار حسنها هذا أنها تعين على تجلية الحقائق وإبراز معادنها ، كما أن لها تأثيرها في الكلام ذلك الذي يجرى معها دائما ، وهذا ما تجده في جمع هذه المتناقضات ،وتجاورها وتضاربها في العبارة والنفس من توتر وإثارة ....وهذه الخصوصية تعطى الأسلوب قدرة على الإيقاظ وصيرورة الحس ، كأنه يكون مستفزا ومثارا حين يحس

---

١ – الحديث في الجامع الصحيح المسمي صحيح مسلم ، لابن مسلم القشيري النيسابوري: ٨/ ١٠– باب تحريم الظن والتجسس – دار الجيل – بيروت .

٢ – تفسير الشيخ الشعراوى : ٨/٤٥٤٤.

٣ – سورة الإخلاص: ١–٤.

بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات ، وهو يثبت على قممها المتغايرة والمتناقضة [١] .

وهل هناك تناقض أبرز من قوة الله – تعالى – ، وغواية الشيطان الرجيم ؟

وقد آثر واصل التعبير بوصف الله بـــ " القوي " ليقابله هناك بـــوصفه للشيطان بـــ " الغوي "

وقد أضفي الجناس الناقص بين اللفظتين " القوي" و " الغوي " جرسا موسيقيا وبداعة تلفت النظر وتشد الانتباه .

وقوله " إن الله هو السميع العليم " إيغال .

وإذا كان ابن رشيق يقول :أن الإيغال ضرب من المبالغة [٢] ، فإن قيمة الإيغال هنا تكمن في زيادة المبالغة ، والثقة في إجابة الدعاء بأن الله – تعالى – يعيذ من هذا الشيطان الرجيم .

ولعل في قراءة واصل لسورة الإخلاص كاملة راجع إلى خلوها من حرف الراء .

ويأتي قوله " نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم والوحي المبين وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم وأدخلنا وإياكم جنات النعيم " عبارة عن جمل خبرية لفظا إنشائية معنى يفيض منها الدعاء من كل جانب ، فهو يدعو أولا بالانتفاع له ولمخاطبيه بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وقد يكون في قوله " والوحي المبين " تكرارا معنويا للقرآن الكريم فيكون من باب التوكيد والتعظيم ، وقد يكون كناية عن القرآن

---

١ – ينظر قراءة في الأدب القديم : ٢٨٦– ٢٨٨.

٢– العمدة لابن رشيق القيرواني – تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد : ٥٧/٢ – دار الجيل – بيروت – ط خامسة – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

والسنة معا ، على اعتبار أن سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – تعد وحيا من الله – عز وجل – " إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [١] .

هذا ولعل ثمة رابط يربط بين الحديث عن القرآن والاستماع إليه والإنصات ، والحديث قبله عن التقوى وقيمتها ومدى التمسك بها ، ولعل في ذلك ما يشير إلى أن الاستمساك بالقرآن من خلال الإنصات والاستماع إليه ما يورث التقوى .

ثم يأتي هنا وهو يدعو بالانتفاع بالقرآن الكريم ، فالمعاني مترابطة والأفكار متواردة ، والألفاظ متوائمة .

وقوله " وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم " معطوف على ما قبله وهو " نفعنا الله وإياكم .." فقد وصل بينهما ؛ لأن الجملتين متحدتان في الخبرية لفظا والإنشائية معنى ، فبينهما توسط بين الكمالين .

و" الأليم " أي : المؤلم ، وليس هو العذاب ، بل " المُعَذِّب " بكسر الذال ، فيكون فيه إسناد معنى الفعل إلى المصدر ففيه مجاز عقلي علاقته المصدرية ، يكشف هذا المجاز عن شدة وسطوة هذا العذاب .

وقوله" وأدخلنا جنات النعيم " أتى معطوفا على سابقه للتوسط بين الكمالين .

وكان للمقابلة البديعة بين قوله " وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم " وقوله " وأدخلنا وإياكم جنات النعيم " كان لها دورها في تقوية المعاني وإثارة النفوس من خلال إبرازها لهذه المتناقضات فيعي السامع ويتنبه ويلتفت فيخص نفسه بالطيب ، ويترك الخبيث ، ويميز بين الغث والثمين ، وما يؤدي به إلى الجحيم ، أو يوصله إلى جنات النعيم .

---

١ – سورة النجم :٤.

وانظر كيف كان واصل دقيقا في اصطفاء هذه الأفعال الماضية في دعائه " نفعنا ، وأعاذنا ، وأدخلنا " .

والتعبير بالماضي أقرب إلى القطع بالوقوع [١] ، وذلك على غرار قوله تعالى " أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [٢] .

ومما يسترعى النظر ويلفت الانتباه – كذلك – أن واصلا قد وفق إلى حد بعيد في إنهاء خطبته هذه النهاية بالحث على استماع القرآن الكريم والإنصات إليه ، والتوجه بالدعاء إلى الله – سبحانه – له ولمخاطبيه ، وهذا الذي فعله واصل يعد حسن ختام كما أنه يسمى بالانتهاء ، وهو ملحق بالبديع ، وهو من المواضع التي ينبغي أن يتأنق فيها المتكلم في كلامه – فقال عنه الخطيب – : " وهو آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس [٣] .

هذا ولصاحب الطراز كلام عنه يحسن ذكره هنا إذ قال : " وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم ، فإنها آخر ما يبقي على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها ، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها وفي قوتها وجزالتها ، وينبغي تضمينها معنى تاما يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية ، ولهذا قال عليه السلام : " إنما الأعمال بخواتيمها [٤] فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه ، والغاية في كلامه ....[١] .

---

١ – الإيضاح : ٨٨.

٢ – سورة النحل : ١.

٣ – الإيضاح : ٣٩٤.

٤ – الحديث في كتاب فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي :٢/ ٢٢٤– دار الكتب العلمية – بيروت– ط أولى – ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

وتأمل دعاء واصل عقب الحث والحض والنصح بالاستماع والإنصات إلى القرآن الكريم " نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم " فهل ترى حسنا لتلك الخاتمة أفضل من هذا الحسن ، ففيها من القوة والجزالة ، وتمام المعنى ، وجمعت بين خيري الدنيا والآخرة ، وكانت – بالفعل – الغاية والمقصد والنهاية .

كما أن واصلا خلال خطبته تلك كان حسن البيان من خلال اجتهاده في إسقاط الراء ، ولم يكن إسقاطه هذا الحرف مشعر لسامعه ، فمن لا يعرف بأنه يعاني من نقص هذا الحرف إذا سمع خطبته تلك لا يشعر أبدا بذلك ، وما هذا إلا لامتلاكه ناصية البيان فكان من الفصاحة والبلاغة بمكان .

ولذلك أري من المناسب أن أختم جولتي تلك مع واصل في خطبته هذه بمقولة الجاحظ عنه وعن خطبته : " ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط " الراء " من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأنى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل [٢] .

---

١ – انظر كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي :١٨٣/٣، مطبعة المقتطف بمصر – ١٣٣٣هـ – ١٩١٤م.

٢ – البيان والتبيين : ٢٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

فبعد معايشة ممتعة وشائقة مع " واصل " في خطبته تلك التي خلت من حرف " الراء"،وهو من أكثر الحروف دورانا في الكلام ، يمكن القول بأن البحث خلص إلى :

- امتلاك واصل ناصية البيان بإسقاطه حرف الراء من كلامه دون أن يشعر سامعه بذلك ، دونما تلجلج أو تلعثم ، لاسيما وهو مرتجل في خطبته ، وقد شهد له الجاحظ بذلك في بيانه [١] .
- احتوت الخطبة على جل المسائل البلاغية من معان وبيان وبديع ، علاوة على ما فيها من دقة تعبيرية في اصطفاء كلمة دون أخرى ، وأسلوب دون آخر ، مع مراعاة أنها ارتجالية لخطيب يفقد حرفا من أكثر الحروف دورانا في الكلام .
- أكثر واصل من الألوان البديعية من براعة الاستهلال ، والاقتباس ، والاحتراس ، والجناس،والسجع،والطباق ، والمقابلة ، ورد العجز على الصدر ، والجمع، والعكس والتبديل ، والمبالغة ، وحسن الختام،وغير ذلك.

وقد كان منه عفو الخاطر ، فالرجل مرتجل ، وأحسب أن الارتجال لا يتيح لخطيب مهما أوتى من بيان أن يتكلف البديع في موقف ارتجالي مهيب بين يدي الولاة والأمراء ، ومن أجل ذلك وغيره فاقت خطبته وراجت ، وفي ذلك يقول الجاحظ : " والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان

١- انظر البيان والتبيين : ٢٣.

" فللبديع مكانته المرموقة التي ظفر بها عند النقاد الأقدمين ، إذا أحسن استخدامه وجاء عفوا بلا تكلف [١] .

- وكان مما أبدى فيه وأعاد من البديع " السجع " لاسيما المتوازي منه ، ولعل في ذلك ما يتيح للمخاطبين من حفظ خطبته ، أوعلي الأقل فهمها فهما جيدا ، حيث كانت عبارة عن موعظة بليغة في تقوى الله والتحذير من الركون إلى الدنيا .

- أفرط واصل - كذلك - في الاقتباس من القرآن الكريم ؛ ولعل ذلك راجع إلى أمور ثلاثة :

الأول: تمكنه من حفظ كتاب الله - تعالى - ولاغرو في ذلك فهو إمام فرقة .

الثاني : ذكاء حاد وسم به ، وفصاحة عارمة ، فهو بكثرة اقتباساته من القرآن الكريم يؤكد جدارته في الفصاحة ، إذ لم يند منه اقتباس قرآني واحد أتى مشتملا على حرف الراء ، ومما يؤكد توقد ذهنه في ذلك الشأن اقتباسه سورة كاملة ، هي سورة الإخلاص ، ولعله في اصطفائه تلك السورة دون غيرها من السور أنها السورة القرآنية التي لم يرد فيها حرف الراء .

الثالث:الاستعانة بهذه الاقتباسات الجمة على تقوية معاني خطبته وتأكيدها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن تشغل الخطبة جزءً كبيرا من القرآن الكريم ، وفي هذا تحاش من الوقوع في نطق حرف الراء ، ولا أدل على ذلك من اقتباسه سورة الإخلاص كاملة ، مع أن المتأمل يجد أن معاني هذه السورة الكريمة لا تتواءم ونهاية خطبته .

---

١ - فن البديع ، د / عبد القادر حسين : ٥، دار الشروق - ط أولى - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- ورد في ذلك البحث ما يدحض القول بأن الأساليب الإنشائية غير الطلبية ليس فيها من المباحث البيانية التي تستأهل لأن يذكرها البلاغيون ويتناولونها بالدراسة ، فقد استعان بها واصل في التحذير والتخويف من الدنيا ، وكشف حقيقتها وكان موفقا في ذلك إلى شأو بعيد [١] .
- برزت مقدرة واصل البيانية في صورة جلية حيث جمع بين الإيجاز والإطناب ، والخبر والإنشاء من خلال جملتين اثنتين هما " تزودوا عافاكم الله " .
- أكثر واصل من المترادفات في خطبته تلك ، من قبيل " أفضل ، وأزكى ، وأتم ، وأنمى ، وأجل ، وأعلى صلاة " ولعل كثرة هذه الصفات وترادفها على هذا النحو ما يوحى بمدى الثروة اللغوية التي يمتلكها واصل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلعله بكثرة مترادفاته ما يغطى به عجزه في نطق" الراء".
- قد يصطفي واصل كلمة ثقيلة على اللسان – مما يتعارض وشروط فصاحة الكلمة – مع كونها موافقة للمراد، مؤدية تمام الأداء، وذلك مثل كلمة " كلكلها " ، في قوله " طحنتهم بكلكلها " والمعنى : طحنتهم بصدرها ،فهو قد استعاض بها عن قوله بصدرها هربا من الراء،وكان يمكن له أن يقول – مثلا – طحنتهم بمقدمتها [٢] ، إلا أن الثقل في كلمة " كلكلها " ناسب الثقل المراد وجوده في الصدر، ليتواءم مع معنى الطحن ، فقد صورت الكلمة برسمها و بجرسها المراد خير تصوير .
- كانت الاستعارة إحدى الأدوات التعبيرية التي استعان بها واصل للتنفير من الدنيا وعدم الجنوح إليه ، كما اعتمد عليها في تصوير حال الدنيا أكثر مما اعتمد

---

١ – ينظر: ٣٤من البحث وغيرها .

٢ – ينظر اللسان : مادة " صدر".

علي غيرها من الصور البيانية الأخرى من تشبيه وكناية ، ولعل ذلك راجع لما للاستعارة من شدة المبالغة ودقة التصوير وتعدد المعاني فهي كما قال عنها شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر " تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر [١] .

- وكما اتكأ واصل على الاستعارة في تصوير حال الدنيا اتكأ كذلك على أسلوب الطباق في الغرض ذاته ، ليؤكد - من خلال الطباق – مدى تناقض أحوال الدنيا ، وبذا غدا الطباق من أهم الوسائل التعبيرية في الكشف عن حقيقة الدنيا ، تلك الحقيقة التي بنيت عليها الخطبة .

- أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه قد يؤخذ على واصل في خطبته تلك أنه لم يراع مقتضى الحال ، حيث قيلت في معرض حفل جامع أقامه الوالى الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق آنئذ في بداية توليه العراق ، وأنه كان من الأليق والمناسب والمطابق لمقتضى الحال أن تكون الخطبة – أو بعضها على الأقل – مشتملة على تهنئة وتأييد ومباركة للوالي الجديد ، أما والخطبة التي بين أيدينا ليس فيها شيء من ذلك البتة ، بل أفعمها واصل من أولها إلى آخرها بالعبر والعظات والتحذير من الدنيا والحث على التقوى ، والحق أن هذا ليس بدعا من واصل ، فهو مطابق لمقتضى الحال ؛ لأنه بما فعله في خطبته تلك ، إنما كان " يمثل تيار الوعظ الديني الذي برز قويا أواخر العصر الأموي ، والذي يدعو إلى رفض الدنيا والتحذير منها وعبر عنه الشعراء

---

١ – أسرار البلاغة :٤٣.

والخطباء [١] وبذا يكون واصل قد طابق مقتضى الحال ، وكان فصيحا أيما فصاحة ، وهذه هي البلاغة ، يؤكد ذلك ويعضده أن هذا الوالي الجديد الذي قيلت له هذه الخطبة قد أعجب بها أيما إعجاب ، بل وكان من إعجابه بواصل أيضا " أن ضاعف له الصلات وميزه عمن سواه في العطاء ، وانتقل خبرحطبته في الآفاق ، وحفظها التاريخ بفخر واعتزاز [٢] .

وبعد : فهذا هو جهدي المتواضع في هذه الدراسة ، وهذه هي نتائجها وملاحظاتها ، فإن أكن بها قد أصبت الهدف ، فذلك الفضل من الله وحده ، فله – سبحانه – الحمد والشكران .

و إلا فبحسبي ثواب المحاولة والاجتهاد ، وأرجو بهذه الدراسة أن أكون قد أضفت شيئا ذا بال إلى مكتبة البلاغة العربية التطبيقية ، وما توفيقي إلا بالله ، وهو وحده يقول الحق ويهدى السبيل ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٣] .

د / دسوقي عبد المعز محمد محمد

---

١ – خطبة واصل بن عطاء التى جانب فيها حرف الراء: ٣٩١.

٢ – السابق : ٣٨٨.

٣ – سورة البقرة من الآية :٢٨٦.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، ويسمى " منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات ، لشهاب الدين محمد الدمياطي – تحقيق : أنس مهرة – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / محمود محمد شاكر– مطبعة المدني – ط – أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي – تحقيق / محمد حسن محمد حسن إسماعيل– دار الكتب العلمية – بيروت– ط ١ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري– دار الجيل – بيروت ط ٥– ١٩٧٩م .
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع – الخطيب القز ويني – دار الكتب العلمية – بيروت – د . ت .
- البديع تأصيل وتجديد ، منير سلطان– منشأة معارف الإسكندرية – ١٩٨٦م .
- البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق / المحامى فوزي عطوى– دار صعب – بيروت – ط ١ ١٩٦٨م.
- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي– مكتبة الآداب – ط ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري– دار الكتاب العربي – بيروت– ط أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .

- تفسير التحرير والتنوير للشيخ / الطاهر بن عاشور- دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.

- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن ناصر السعدي - تحقيق / عبد الرحمن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة - ط أولى - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري - تحقيق / أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - ط أولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- الجامع الصحيح المسمي صحيح مسلم ، لابن مسلم القشيري النيسابوري- باب تحريم الظن والتجسس - دار الجيل - بيروت

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - أحمد زكي صفوت- المكتبة- العربية - بيروت - د.ت .

- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك : ١٣٤٨.

- خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني- د/ محمد أبو موسي -مكتبة وهبة - ط ٤- ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- دراسة في البلاغة والشعر ، محمد أبو موسى - مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩١.

- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - تحقيق / محمود أحمد شاكر- مطبعة المدني - ط الثالثة - ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،للألوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - د.ت.

- شرح صحيح البخاري - لابن بطال البكري القرطبي - تحقيق / أبي تميم ياسر بن إبراهيم - مكتبة الرشيد - السعودية - الرياض -ط ثانية ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م .

- شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد - تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي وشركاه . د . ت .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندى - تحقيق : يوسف علي طويل - دار الفكر ، دمشق ١٩٨٧ م .

- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، د/ بسيوني فيود- مكتبة وهبة - د . ت .

- العمدة لابن رشيق القيرواني - تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - ط خامسة - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- الفائق في غريب الحديث للزمخشري - تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة ، لبنان ، ط ٢ ، د. ت.

- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى - تحقيق / محمد إبراهيم سليم : - دار العلم والثقافة - ١٩٩٨م.

- فن الجناس بلاغة أدب نقد - على الجندي- دار إحياء الفكر العربي - ١٩٥٤م.

- فن الخطابة ،د/ أحمد محمد الحوفى- مطبعة نهضة مصر، ط الثانية، د-ت .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي - دار الكتب العلمية - بيروت- ط أولى - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- قراءة في الأدب القديم – د/ محمد أبو موسي- دار الفكر العربي – ط١- ١٩٧٨م.

- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد،تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر العربى – القاهرة – ط ثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

- الكتاب لسيبويه – تحقيق / عبدا لسلام محمد هارون- ط ثانية – ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي- مطبعة المقتطف بمصر – ١٣٣٣هـ – ١٩١٤م.

- لسان العرب لابن منظور- دار صادر- بيروت- ط١ د. ت .

- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي- ضبط وتعليق/نعيم زرزور- دار الكتب العلمية-بيروت – ط ثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق : محمد سيد كيلاني- دار المعرفة – لبنان – د. ت .

- نقد النثر لقدامة بن جعفر ، تحقيق د/ طه حسين ،وعبد السلام الحميد العبادى – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٢٩٨هـ.

- نوادر المخطوطات : جمع وتحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون ، تقديم د/ محمد زغلول سلام – طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة، د-ت.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق/ إحسان عباس – دار صادر- بيروت- ط أولى ١٩٩٤م.